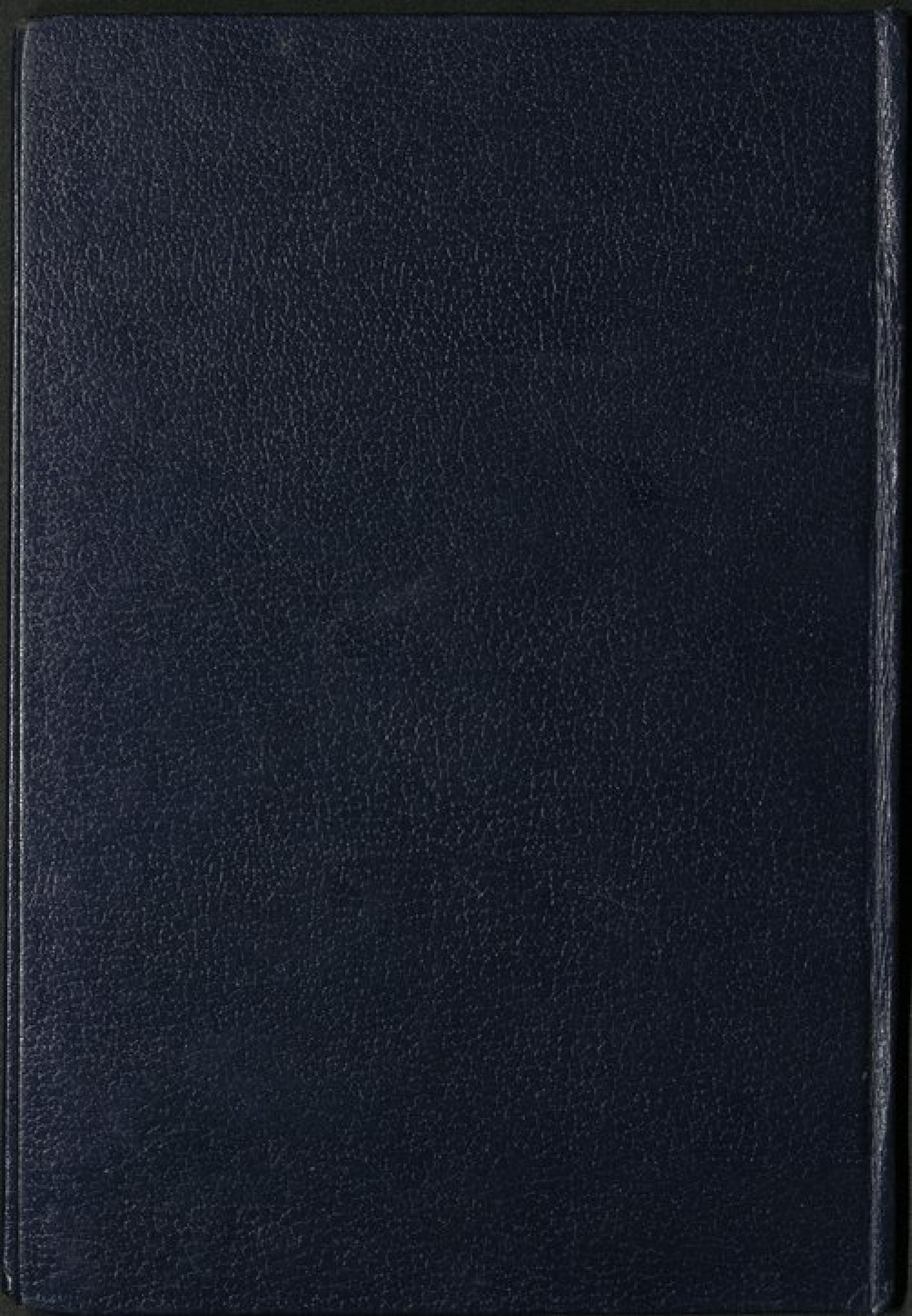
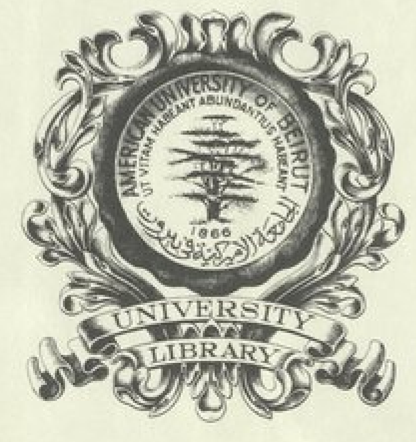
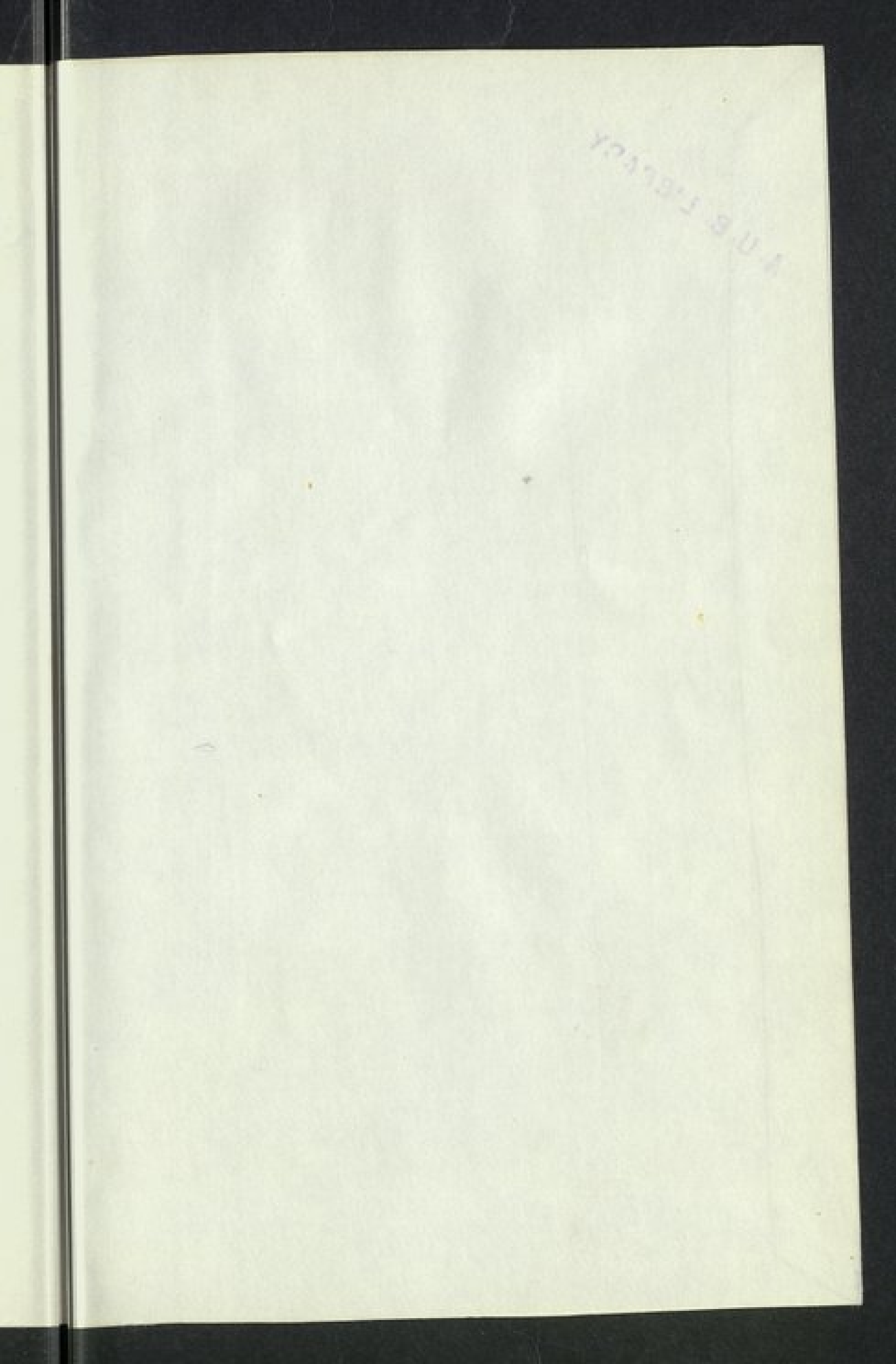
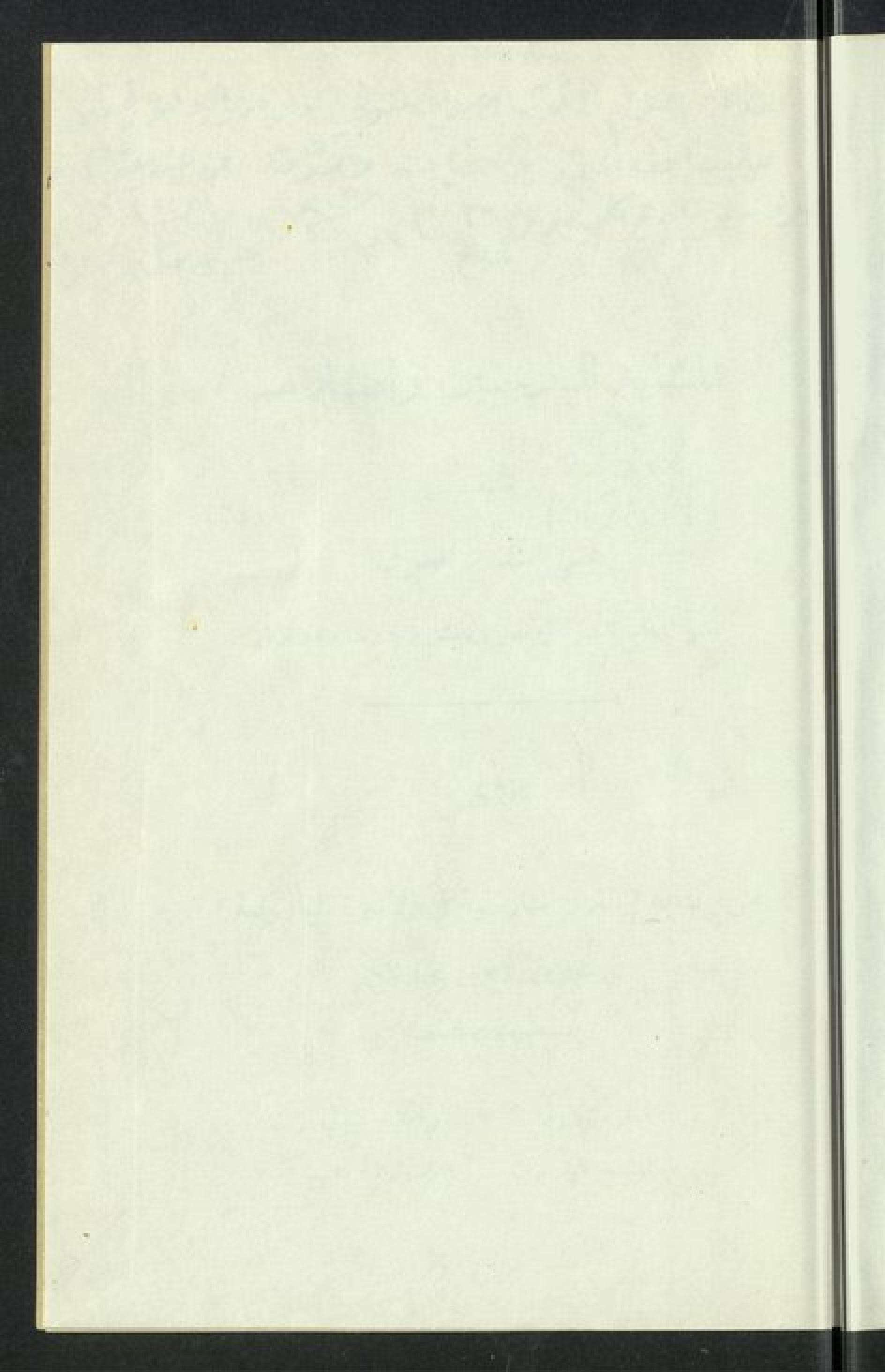
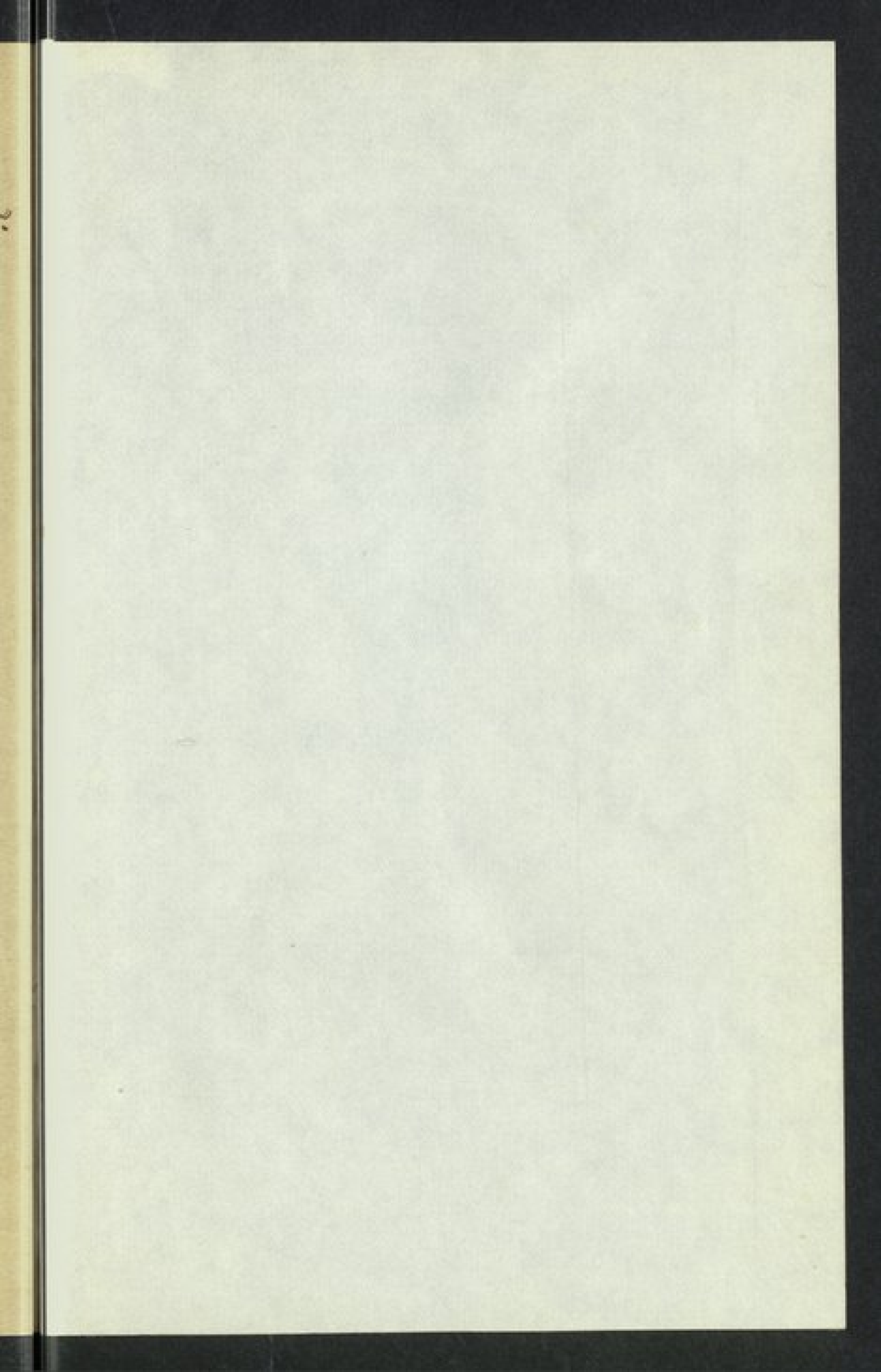



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY







تقدمة احترام فائق للصديق الوفي العلامة الدكتور [illegible]
فيليب اسعد حتي مع التحيات والشوق من صديقه المخلص
بيروت شارع كليمنصو رقم ٢٢٦ ١٩٦٥ ٢١ ت٢ ١ ك ١
تاريخ
عيسى اسكندر المعلوف

المشايخ اليازجيين واصهارهم

تأليف

عيسى اسكندر المعلوف

عضو المجامع العلمية في مصر ودمشق وبيروت والبرازيل

مختصر

من كتابه «الغرر التاريخية في الاسرة اليازجية»

في مجلدين كبيرين مخطوطين

الجزء الاول * والجزء الثاني

في المشايخ اليازجيين في اصهارهم وبناتهم

الجزء الاول

مختصر تاريخ المشايخ اليازجيين

بقلم عيسى اسكندر المعلوف

نشر تباعاً في مجلة « الرسالة المخلصية »

طبعة ثانية منقحة

المطبعة المخلصية

دير المخلص – قرب صيدا (لبنان)

١٩٤٥

توطئة

كان من اهم اركان النهضة العلمية في القرن التاسع عشر المشايخ اليازجيون وهم حورانيو الاصل جاؤوا حمص واشتهروا فيها وتفرقوا كما سيجي٠٠ وقد ولعت بمطالعة مؤلفات هذه الاسرة العلمية الشهيرة وشافهت بعض اعلامها وجالست علامتنا المرحوم الشيخ ابرهيم اليازجي وشقيقته الشاعرة الناثرة المرحومة وردة ، والشيخ ملحم ابن الشيخ راجي اليازجي شقيق علامتنا الكبير الشيخ ناصيف، وكثيراً من تلاميذ اليازجيين ٠ وراجعت في الاديار المخطوطات الكثيرة ، فوقفت في دير الشير للرهبانية الحلبية على مجموعة فيها كثير من اشعار الشيخ ناصيف التي لم تطبع في دواوينه ٠ فهي بليغة ، وان كان قد اهملها رحمه الله لان بعضها من اوائل نظمه ، او مما كان يريد ان يفرد له جزءا خاصاً ، فاستنسخت من هذه المجموعة كثيراً من المنظومات التي كانت له ، ثم وقفت على بعض مخطوطات وجدت فيها قصائد ومقاطيع لآل اليازجي الى غير ذلك من الاوراق والكراريس التي طبعت في المطبعة المخلصية الاولى في بيروت ٠ فاستنسختها جميعها ، واضفت اليها كثيراً من الاخبار التي سمعتها من تلامذة اليازجيين الكثيرين من كبار علمائنا من كهنة وعوام ممن درسوا على الشيخ ناصيف وولديه الشيخ ابرهيم والشيخ خليل في المدرسة الوطنية للاستاذ بطرس البستاني ، وفي المدرسة البطريركية الكاثوليكية ، ومدرسة الاميركان المعروفة الآن بالجامعة الاميركية ٠ وقد حفظت كل ذلك في كتاب وضعته لهذه الاسرة الكريمة بعنوان « الغرر التاريخية في الاسرة اليازجية » وقع في مجلدين ٠ الاول منهما في المشايخ اليازجيين وذراريهم من

جدود وآباء وابناء وحفدة ، وقد صدرته بهذه الابيات :

لآل اليازجيِّ جميل ذكر بقطر الشرق ذاع الى المغارب
فكل منهمُ عالي المزايا وكل منهمُ سامي المراتب
لهم كتب حسان خلدتهم فنالوا السبق في لغة الاعارب

وهذا المجلد يقع في اكثر من تسعمائة صفحة ، تليه اجزاء جمعتها من آثارهم، بعضها بخطوط الشيخ ناصيف واولاده وشقيقه الشيخ راجي وولده الشيخ ملحم ورسومهم ولا سيما رسم اسرة الشيخ ناصيف وزوجته واولاده الذكور والاناث على لوحة واحدة . ويحوي هذا الجزء ايضاً مجموع مراثي المرحوم الشيخ ابرهيم وما قيل في نقل رفاته ونصب تمثاله في بيروت . ثم ما وجدته من المنشورات التي طبعت في مطبعة دير المخلص في بيروت وغيرها كما قلت ، وايضاً ما رايته في المخطوطات مما لم ينشر في المطبوعات من نثر ونظم ولا سيما ما هو في حوزة حفيدهم الشيخ حبيب ابن الشيخ خليل مما استودعه في صناديق عند جدته لامه من آل الكاتب . وهي تحوي المخطوطات للشيخ ناصيف ولاولاده مما لم تتناولها ايدي المطابع.

والمجلد الثاني في تواريخ اصهار اليازجيين وبناتهم واسباطهم اي ابناء بناتهم واصهار اصهارهم وهذا المجلد يقع في اكثر من اربعمائة صفحة .

فاختصرت من هذه المجاميع الجزأين في المشايخ اليازجيين واصهارهم .

ولقد تقصيت البحث بحسب ما وصلت اليه يدي في تحقيق كل ما اوردته وما وقفت عليه من اثارهم المطبوعة والمخطوطة فلعلي اصبت المرمى في ما قصدته في خدمة هذه الاسرة العلمية التي كان لها الفضل في نشر اللغة العربية وآدابها بين المسيحيين وغيرهم . فكان ذلك اساس النهضة في القرن الماضي وما بعده .

الفصل الاول

كلمة في الاسرة اليازجية

ان هذه الاسرة عربية الاصل حورانية المنبت هاجرت الى حمص في نحو القرن الخامس عشر للميلاد وهناك نشأ منها كتّاب لولاة حمص (*) فلقّب جدهم الاصلي « باليازجي » التركية (وهي بمعنى الكاتب). فصار هذا اللقب علماً لهذه الاسرة وفروعها الكثيرة التي انتشرت في حمص ثم انتقل بعض فروعها الى دمشق ، والى مرمريتا في حصن الاكراد ، والى لبنان ، ووادي التيم ، فكان لفروعها هذه ذكر مستطاب حيث حلت وايان نزلت. فنخص الان بحثنا في فرعها اللبناني المقصود من هذه المقالة .

في اواخر القرن السابع عشر للميلاد جاء من حمص الى غرب لبنان سعد اليازجي وتدير بلدة الشويفات في جوار بيروت فنال منزلة لدى الامير احمد المعني آخر حاكم للبنان من المعنيين وكتب له . لان اسلافه في حمص كانوا كتّاب الولاة ومدبريهم كما مر . فنال سعد لدى المعني حظوة فكتب اليه لقب « الشيخ » لوجاهته وعلمه . ولزمهم هذا اللقب الى اليوم . فكان الشيخ سعد رأس اسرته اليازجية التي بقيت اعقابها في لبنان . وتوفي في تضاعيف القرن الثامن عشر عن ثلاثة ذكور صاروا آباء لثلاثة فروع وهي المعروفة عند عامتنا بالجباب جمع جب .

(*) بين مخطوطاتي ديوان نادر للطبيب ابرهيم الحناكي الحلبي وفيه قصائد لكثير من ادباء اليازجيين في حمص . فنشرت منه مقالة في مجلة « المشرق » اليسوعية البيروتية .

فاولاد سعد هم جنبلاط، ونجم، وباز، اشتهروا مثل ابيهم بتقربهم من الامراء الارسلانيين والشهابيين ونيلهم منزلة لديهم . وتسلسلت فيهم القاب المشيخة في بني جنبلاط ونجم وباز .

فجنبلاط بن سعد اليازجي هو رأس الاسرة اليازجية المشهورة بعلومها ومؤلفاتها في لبنان وسورية وجميع البلاد العربية . فترك جنبلاط ثلاثة ذكور هم ناصيف ونصار وابو زيدان. فناصيف اعقب، واما نصار وابو زيدان فلم يعقبا .

فناصيف بن جنبلاط ولد له عبدالله رأس الاسرة في العلم، وهذا اعقب ثلاثة هم ناصيف ونصار، الذي توفي عزيباً، وراجي .

فناصيف المشهور بمعارفه اقترن بالسيدة صابات الشامي من آل الطويل الدمشقيين نزلاء دير القمر عند الامير بشير الشهابي الكبير حاكم لبنان . فرزق الشيخ ناصيف عماد هذه الاسرة اثني عشر ولداً : ستة ذكور، وست اناث عرف اكثرهم بالادب وخدمة العلم كما سيجي. . والشيخ راجي شقيق الشيخ ناصيف رزق ولداً اسمه الشيخ ملحم توفي بلا عقب . ولم يعقب من اولاد الشيخ ناصيف الا الشيخ خليل فانه رزق ولداً سماه حبيباً، فولد حبيب ولدين في البرازيل اسمها ناصيف وخليل وهم بقية الاسرة اليازجية هذه في سان باولو البرازيل .

وعند آل اليازجي من سلالة نجم بن سعد الذين هم الآن في بِطْشَيْه قرب بعبدا اوراق من الامراء تدل على ان الحكومة تركت لهم الاموال الاميرية والتكاليف خدمة لهم في اخلاصهم للحكومة ومنزلتهم الكبرى عندها . ولا محل الآن لذكرها . فمن عرفوا بخدمة الحكام الشيخ ابو نصار جنبلاط

ابن سعد اليازجي كان كاتباً في ديوان الامير حيدر الشهابي اول حكام لبنان بعد المعنيين كما يظهر من ورقة ارسلها هذا الامير الى الشويفات لرفع التكاليف ، وهذا نصها بالحرف الواحد عن اصلها :

« الى اعز المحبين الشيخ ابو نجم والشيخ حسين قصاد قرية الشويفات المكرمين سلمهم الله تعالى .

اولا مزيد الاشواق اليكم . وبعده بلغنا ان مكتوبين شركات كاتبنا ابو نصار في الكسْر [1] وما لهم عادة . لا تعارضوهم في شي. والعوايد تجري مجراها يكون معلومكم » .

« والختم على القفا [2] »

« الامضاء »
« حيدر شهاب »

الى غير ذلك مما لا محل له في هذه العجالة .

---

(١) يراد بها الاموال الاميرية والضرائب ونحوها .

(٢) كان من عادة الحكام في ذلك الوقت اذا كتبوا كتاب رضى يضعون الختم على قفا الورقة مقابل التوقيع اي الامضاء ، واذا كان كتاب غضب يوضع الختم بجانب التوقيع .

الفصل الثاني

العلماء اليازجيون

اولاً — الشيخ عبدالله اليازجي

هو عبدالله بن ناصيف بن جنبلاط بن سعد جد اليازجيين في لبنان. ولد في الشويفات نحو سنة ١٧٧١ ودرس على بعض الرهبان مبادىء العلوم والطب على مذهب ابن سينا . فطَبَّ للامراء والحكـام في عهده ، كالامراء الارسلانيين والشهابيين ، واحمد الجزار ، فنال لديهم منزلة سامية وجاهاً عريضاً لحسن آدابه ودماثة اخلاقه . واتصل بالامير حيدر الشهابي في كفرشيما فنال لديه منزلة ، وسهل له ذلك الانتقال باسرته الى كفرشيما . فتديرتها بعده سلالته . واتصل برهبان دير القرقفي ، في كفرشيما ، فدرس عليه بعضهم اللغة العربية . وصادق ادباء عصره في ذلك العهد ، فقرظ ديوان القس حنانيا المنيّر احد الرهبان الحناويين بقصيدة لم يبق الا مطلعها وهو :

عش بالهنا والخير والرضوانِ ... يا من عنيت بنظم ذا الديوانِ

اني لقد طـالعته فوجدته ... نظماً فريداً ما له من ثانِ

تزوج الشيخ عبدالله بالسيدة بريجيتا ابنة العقاد في كفرشيما ، ورزق ثلاثة ذكور وهم المشايخ ناصيف وراجي ونصار ، فهذا الاخير توفي عزيباً . وبقي ولداه الاولان من نوابغ العصر في العلوم والآداب العربية ورزق ابنتين احداهما راجيل زوجة رفائيل الدقي كما سيجيء ، والثانية ليًا توفيت عازبة . وتوفي الشيخ عبدالله في كفرشيما سنة ١٨٣٦ .

ثانياً — الشيخ ناصيف اليازجي

هو ابن الشيخ عبدالله . ولد في كفرشيما في ٢٥ اذار سنة ١٨٠٠ فتعلم القراءة البسيطة على بعض الرهبان ، وانكب على درس بعض الكتب في القرقفي ، فاتقن اللغة العربية من صرف ونحو ، وساعدته ذاكرته القوية على ان يكون معلم نفسه باجتهاده ، حتى كان من نوابغ ذلك القرن . وقلما طالع كتاباً واحتاج الى مراجعته ثانية . وكان من صغره ينظم الشعر العامي (الزجل) فله فيه بدائع . ثم مال الى الشعر الفصيح فابدع فيه ابداعاً تدل عليه مجموعات دواوينه المطبوعة وما بقي من شعره المخطوط . فذاع ذكره لدى الامراء والاساقفة والرؤساء في ذلك العهد . فاستقدمه اليه البطريرك اغناطيوس القطان الخامس الملكي الكاثوليكي ، وعينه كاتباً في ديوانه ، لما كان مقيماً في دير القرقفي ، من سنة ١٨١٦ الى ١٨١٨ ، حيث انتقل البطريرك الى زوق ميكائيل . فبقي الشيخ في قريته يعالج النظم والادب في بيته .

وبلغت شهرته الامير بشير حاكم لبنان فاتخذه من كتّاب ديوانه في بتدين من ١٨٢٨ الى ١٨٤٠ فلما زار الشاعر الفرنسي دي لامرتين الشهير الامير بشير في بتدين جالس الشيخ وكتب عنه في رحلته . فنظم الشيخ ناصيف كثيراً من قصائده في الامير بشير الذي كان رئيس ديوانه المعلم بطرس كرامة الحمصي الشاعر المشهور وغيرهما . فما وقفت عليه من منظوماته المهملة، مجموعة مخطوطة وقعت لي تشتمل على تسع وعشرين قصيدة، وكل قصيدة فيها تسعة وعشرون بيتاً تبتدئ وتختم بحرف من حروف الهجاء، على مثال أرتقيات صفي الدين الحلي . وهي من اوائل نظمه . وكذلك له في هذه المجموعة منظومات في تسع وعشرين قصيدة كل

قصيدة عشرة ابيات يبتدى. كل شطر منها وينتهي بالالف ثم الباء الى آخر حروف الهجاء ، في مدح الامير ملحم الشهابي سماها المحصنات . فكتبت مقالة مطولة في هذين الاثرين المخطوطين في مجلة « المسرة » الغراء للآباء البولسيين في حريصا ، واوردت امثلة منها الى غير ذلك من الآثار التي لم تنشر بل لم تعرف بين كثير من ادبائنا . ومنها في هذه المجموعة ثلاث بديعيات من نظمه .

فلما اخرج ابرهيم باشا المصري من سوريا ولبنان وفلسطين وتبعه الامير بشير حليفه الى مالطة فالاستانة انحدر الشيخ ناصيف الى بيروت وتديرها باسرته وبقي فيها الى موته .

وقد اتصل بالمرسلين الاميركيين الذين دخلوا البلاد في زمن الدولة المصرية وكان استاذاً لكثيرين منهم . فعندما اسست الجمعية السورية في بيروت بمساعي عالي سميث وطمسون الاميركيين كان الشيخ ناصيف احد اعضاء هذه الجمعية ، وكان له الفكرة الاولى بانشائها سنة ١٨٤٧ . ثم كان استاذاً في مدرسة الاميركان المعروفة بالجامعة الاميركية الآن ، وفي المدرسة الوطنية للبستاني ، والمدرسة البطريركية سنة ١٨٦٤ فتخرج عليه كبار علمائنا .

وبعد ان نقل الاميركان مطبعتهم الاميركية من مالطة الى بيروت كان الشيخ مصححاً لمطبوعاتها ونشراتها .

وسنة ١٨٤٧ شرع الدكتور عالي سميث بترجمة الكتاب المقدس مع لجنة الى اللغة العربية فكان الشيخ ناصيف يصلح اللغة العربية ويضبط الترجمة . كما ذكر الدكتور هنري جسب في الصفحة ٢٤٣ من كتابه باللغة الانكليزية « خمسون سنة في لبنان » . وراسله جميع كبار العلماء من مستشرقين ووطنيين في جميع البلاد العربية ومدحوه بقصائد رائعة ومقالات شائقة عارفين منزلته العلمية

فاجابهم بمثل ذلك . وقد جمعت بعض هذه المراسلات والاجوبة عليها في كتاب « فاكهة الندماء في مراسلات الادباء » وبقيت مراسلات اخرى لم تطبع . منها قول المستشرق الكبير سلفستر دي ساسي الفرنسي والمسيو رينو الفرنسي حافظ المخطوطات الشرقية في المكتبة الامبراطورية واستاذ اللغة العربية فيها ، فألقى رينو محاضرة في الاجتماع العام للجمعية الآسوية بتاريخ ٢٤ حزيران سنة ١٨٥٧ في باريس ذكر فيها ما امتاز فيه الشيخ ، في الصفحة ١٦ من تلك المجموعة . وغيرها مما عرّبته واضفته الى تاريخ اليازجيين .

وهكذا نرى ان الشيخ ناصيف اراد ، كعالم مسيحي ، ان يضع لابناء امته مؤلفات على طراز المؤلفات الاسلامية التي وضعها علماؤهم . فشرع في وضع ارجوزتين في الصرف والنحو ، كما فعل ابن مالك بجمع القواعد في الشعر . ثم شرحهما بقلمه كما شرح ابن عقيل وغيره الالفية المالكية . والف « مجمع البحرين » على مثال المقامات البديعية والحريرية . وزاد عليها كثيراً من التفننات في الشعر والنثر ، وشرحها بقلمه فتضاعفت فائدتها لما اظهره في الشرح من اخبار العرب وامثالها وعاداتها واخلاقها ونوادرها ونحو ذلك . فوضع هذه المطولات للمدارس العليا ثم نظر الى المدارس البسيطة والابتداء في التدريس فيها ، فاختصر كتباً في الصرف والنحو كان اهمها « فصل الخطاب » المشهور بضبطه للقواعد باختصار وايجاز كافيين . واسترسل الى علوم البلاغة فوضع « عقد الجمان في المعاني والبيان » باسلوب بديع ضمنه علوم المعاني والبيان والبديع والعروض مما يفي بحاجة الدارس . وكان قد نظم ارجوزة مطولة في العروض باسم « الجامعة » شرحها ولده الشيخ حبيب باسم « اللامعة » . واختصر هذه العلوم بكتاب « الطراز المُعلَم » ثم ألف مختصراً في المنطق باسم « قطب الصناعة » وكان يريد

ان يؤلف مطولاً في المنطق ولكنه رأى ان الذين يميلون الى علم المنطق ودرسه معظمهم من الكهنة والرهبان وهؤلاء عندهم بعض مؤلفات معربة عن اليونانية واللاتينية ولا سيما مؤلفات السمعاني عند الموارنة ومؤلفات الاب يواكيم المطران البعلبكي الراهب الباسيلي الشويري . وهي بين مختصرة ومطولة فتفي بحاجاتهم فاكتفى بوضع « قطب الصناعة » على اسلوب الايساغوجي (اي المدخل) لاثير الدين الابهري نظماً .

ونظم ارجوزة في الطب على مثال ارجوزة الشيخ الرئيس ابن سينا وسماها « الحجر الكريم في الطب القديم » ضمنها قواعد صحية مفيدة ، وشرحها بقلمه فطبعها الاستاذ فؤاد افندي افرام البستاني اخيراً . ذلك فضلاً عما بقي من مؤلفاته المخطوطة التي سيأتي ذكرها ، كما وضع كتباً لغوية وادبية وصحح كتباً دينية وغيرها .

وعلى الجملة فان الشيخ ناصيف ، رحمه الله ، الف في جميع فنون اللغة العربية ما عدا الفقه . ووضع اطول المؤلفات واخصرها في اكثر القواعد اللسانية . فتعجب كثيرون من اعماله حتى ان صديقي الشاعر الناثر قسطاكي بك الحمصي الحلبي روى لي ان احد ادباء بغداد قال له ما يأتي : « عندمـــا وصل الى عبد الباقي العمري الشاعر المعروف في بغداد كتاب « مجمع البحرين » للشيخ ناصيف قام ذلك البغدادي باطرائه هو نفسه والثناء على ناسج بردته في جمهور من كبار علماء بغداد وشعرائها . فلم يرق ذلك بعض الغُلاة فقال له يا مولانا قد غاليتم في مدحها ونحن نعلم انكم لو شئتم لجئتم باحسن منها » فاجابه العمري : « اعلم انه لا يعسر علي ولا على من هو مثلي ان يؤلف خمس مقامات او ستاً او عشراً ولكن آية اليازجي في تأليف ستين مقامة » .

مؤلفاته المطبوعة .

كان يقول « اذا عمدت الى تأليف كتاب او نظم قصيدة شخصت نفسي مكان من يُدفعان اليه فتكلمت حسب مفهومه » . فاصاب بقوله هذا كبد الغرض من التأليف لافادة الناس لا للتبجح بمارفه . وعلى هذه القاعدة جاءت مؤلفاته بسيطة المبنى واضحة العبارة ليس فيها تعقيد ولا استخدام الفاظ غريبة الا ما قصد في ذلك مجاراة التحدّي في « مجمع البحرين » .

وكان لا ينظم قصيدة ولا يؤلف كتاباً ولا يغير شيئاً من المسودة الاولى لانه لم يعتمد على شيء الا بعد الامعان والبحث والتأمل الطويل، دأبه في جميع تصرفاته واعماله . لانه كان فكيراً متروياً متثبتاً محققاً شأن كبار العلماء وجهابذة النقد ، فكان ثابت الفكر متين الرأي قليل التقلب باخلاق تدل على ادبه وتواضعه .

فمن مؤلفاته : « فصل الخطاب في اصول لغة الاعراب » الذي طبع مراراً .(*)

« النبذة الاولى من ديوانه » طبعت مراراً .

« نفحة الريحان او النبذة الثانية من ديوانه » . طبعت مراراً .

« ثالث القمرين » او النبذة الثالثة من ديوانه .

طبع كل من هذه الدواوين على حدة اولاً ثم اعيد طبعها بنفقة ميخائيل رحمة وضَبطِ الشيخ ابرهيم وتصحيحه ، وفي صدرها ترجمة الشيخ ناصيف بقلم سبطه امين الحداد ومؤازرة خاله الشيخ ابرهيم .

« نار القرى في شرح جوف الفرى » ارجوزة في النحو طبعت ثم اختصرها

(*) شرح الابواب الثلاثة الاولى من « فصل الخطاب » هو للمرحوم عالي سميث الاميركي وباقي الشرح للمؤلف .

ولده الشيخ ابرهيم فطبعت ثانية . (*)

« الجمانة في شرح الخزانة » ارجوزة في الصرف طبعت في المطبعة المخلصية في بيروت سنة ١٨٧٠ اختصرها ولده الشيخ ابرهيم ايضاً وطبعت ثانية .

« فاكهة الندماء في مراسلات الادباء » مجموع القصائد التي راسله بها كبار الشعراء في البلاد العربية واجوبته عليها . طبعت في المطبعة المخلصية سنة ١٨٦٦ ثم اعيد طبعها بعد ذلك .

« عقد الجمان في علم البيان » او « مجموع الادب في فنون العرب » طبع مراراً .

« مجمع البحرين » مقاماته المشهورة طبعت مراراً . وترجم المستشرق الروسي اغناطيوس كراتشكوفسكي بعض مقامات « مجمع البحرين » الى لغته الروسية .

« رسالة في الحريري وشرحه » بعث بها الى البارون سلفستر دي ساسي المستشرق الفرنسي الشهير ، تدارك بها ما فرط منه في رواية متن المقامات الحريرية وتحرير شرحها مما طبعه مترجماً باللاتينية المستشرق مُهرَن في لِيَبسيك سنة ١٨٤٨ في ١٩٦ صفحة بقطع ثمن طويل ، عدا بضع صفحات باللاتينية ، اقترحها على الشيخ ناصيف المسيو دي ليسبس قنصل بيروت العام الفرنسي فاعتذر الشيخ ، لتجنبه المناقشات ولاخلاده الى حب السلام والتودد ، فالحَّ عليه القنصل حتى اضطر الى كتابتها بعبارة لطيفة ، حافظ فيها على حقوق الآداب ولم يمس فيها

(*) شرح ارجوزة نار القرى نظماً بالرجز نجيب افندي فرج الله فياض البيروتي وطبع منها ثلاثة اجزاء بمطبعة اليسوعيين في بيروت . ثم طُبع المختصر بنفقة المرحوم مخائيل رحمه . وقد جمع المذكور نسخ التجارب (البروفات) ، مصلحة بقلم الشيخ ابرهيم اليازجي ، في كتاب على حدة محفوظ في مكتبة المدرسة الرهبانية المخلصية .

العواطف ، شأنه في جميع كتاباته . وقد صدرها بقوله :

هل كتابي اليك الا غرورٌ   غير اني حسدته بلقاكا
يستحي منك ان تراه وفيه   الف عين ويستحي ان يراكا

وكأن علامتنا اليازجي قد اظهر اخلاقه في النقد بقوله هذا :

تفانى اليوم اهل النقد حتى   راينا الزُجَّ قدام السنانِ
فهم لا ينظرون الى مقال   ولكن ينظرون الى فلانِ

« الجوهر الفرد » في اصول الصرف والنحو . اختصر به الفنَّين باقل ما يمكن من الالفاظ والضوابط فكان اسمه دالاً على انه لا يقبل الانقسام . شرحه ولده الشيخ ابرهيم برسالة سماها « مطالع السعد لمطالع الجوهر الفرد » وطبع متنه بالحبر الاحمر وشرحه بالحبر الاسود بالمطبعة المخلصية سنة ١٨٧٠ . ثم بمطبعة المرسلين اليسوعيين في بيروت سنة ١٨٧٥ .

« الجامعة » ارجوزة مطولة في علمي العروض والقوافي وضعها على اسلوب جمع القواعد والشوارد والنكات . شرحها ولده الشيخ حبيب برسالة سماها « اللامعة في شرح الجامعة » فرغ من نظمها سنة ١٨٥٣ كما يدل تاريخ في اخرها قال فيه :

فاعمل بما علمت منه تبلغِ   في الشعر من تاريخه ما تبتغي

طبعت في بيروت ايضاً .

« لمحة الطرف في اصول الصرف » ارجوزة مختصرة في الصرف شرحها بقلمه شرحاً كافياً . أتم نظمها كما ارخها بقوله :

والآن اذ حان تمام العمل   مؤرِّخاً أطلب حُسن الختم لي

وذلك سنة ١٢٥٤ هجرية الموافقة لسنة ١٨٥٤ مسيحية . طبعت في

بيروت بالمطبعة المخلصية ١٨٧٠ .

« طوق الحمامة في النحو » مختصر في علم النحو . طبع بالمطبعة المخلصية سنة ١٨٧٠ .

« الطراز المُعلَم في علم المعاني والبيان والبديع » ارجوزة في هذه الفنون شرحها بقلمه وانجزها سنة ١٨٦١ . طبعت بالمطبعة المخلصية سنة ١٨٦٧ بالحبرين الاسود والاحمر .

« الباب في اصول الاعراب » ارجوزة مختصرة في علم النحو . شرحها بقلمه وهي اشبه بلمحة الطرف . طبعت في بيروت .

« قطب الصناعة في المنطق » وهو ارجوزة مختصرة طبع في بيروت سنة ١٨٥٧ .

« رسالة في لبنان وحكومته وآدابها » تاليف اليازجي وفي مخطوطاتي نسخة منها كتب في آخرها ما نصه : « انتهى بقلم ناصيف اليازجي سنة ١٨٣٣ » وعنوانها ايضاً (نزهة الزمان في حوادث عربستان) نشرتها مجلة « الهلال » (١٣ : ٥١٣ و٥٦٦) ونسبتها الى اندراوس الصوصه من دير القمر . ونشرها الاب قسطنطين الباشا (بم) في مجلة « المسرة » . وانكر انها لليازجي . مع ان الاب لويس شيخو اليسوعي ذكر انها لليازجي في كتابه (الآداب العربية في القرن التاسع عشر) (٢ : ٣١)

ومنها نسخة مخطوطة في خزانة برلين الملكية . نقلها الى الالمانية العلامة فليشر (Fleischer) ونشرها في المجلة الاسوية الالمانية (بالمجلد السادس والصفحة ٩٨ و ٣٨٨) وطبعت بالعربية في القدس الشريف سنة ١٨٨٥ بدون اسم المؤلف وذكرتها في (دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف) الصفحة ٣١٢

« مجموعة نشائد » . طبعت بالمطبعة المخلصية سنة ١٨٦٨ . فيها اناشيد للشيخ ناصيف ولبعض اساتذة المدرسة البطريركية مما القي في حفلتها السنوية .

« نظم سفر المزامير » للمرسلين الاميركيين على طريقة الاناشيد الملحنة يتلونه بالحانه في كنائسهم طبع في بيروت .

« نبذة في تواريخ الشيخ ناصيف الشعرية » . طبعت في بيروت سنة ١٨٥٩ .

وقد جمع المعلوف مؤلف هذا التاريخ معظم هذه المؤلفات النفيسة في قصيدة هنأ فيها المرحوم الشيخ ابرهيم نجل الشيخ ناصيف . قال منها :

يكفيك انك قد غدوت الكاتب م ابن الكاتب ابن الكاتب المقداما
من اسرة بسقت غصون جنانها حتى غدت لبناننا والشاما
في عهد (ناصيف) الذي بجهاده م المشهور اصبح للعلوم إماما
وهو الذي نال الفخار بوضعه كتباً توطد للعلوم دعاما
فانشق لذاك عبير (عرف طيب) من (نفحة الريحان) واشف سقاما
كم شمت (للندماء فاكهة) لما (نار القرى) قد نورت آكاما
يا (ثالث القمرين) صغ في (مجمع م البحرين) من (عقد الجمان) نظاما
(حجر كريم) بل جمانة (جوهر فرد) ابى ان يقبل الاقساما
كم (نبذة) (فصل الخطاب) (طرازها) جاءتك (جامعة القريض) ركاما
كم (نقطة) (قطب الصناعة) زانها فغدت (بلمحة طرفه) تتسامى
لم يكفه بثُّ المعارف في الورى فتراه (طوق بالعلوم حماما)

مؤلفاته المخطوطة ، والكتب التي اصلحها ، ومنسوخاته .

للشيخ ناصيف مؤلفات كثيرة لعبت فيها ايدي الضياع ، ولاسيما بعد موت

ولده الشيخ ابرهيم . فما سلم من الضياع :

« عمود الصبح » وهو رسالة في التوجيهات النحوية. انتهى فيها الى المفعول فيه ولم يفسح له الاجل فاعجلته المنية عن اتمامها .

« جمع الشتات في الاسماء والصفات » معجم (قاموس) في اعضاء الانسان والصفات التي على وزن افعل .

« القطوف الدانية » شرح لبديعيته المعروفة التي مطلعها

عاج المتيم بالاطلال في العلمِ فابرع الدمع في استهلاله العرمِ

وهي مئة واربعة عشر بيتاً جامعة بين الصناعات اللفظية والمعنوية البديعية وبلاغة المعاني . نظمها سنة ١٨٤٧ . رأيتها هي وشرحها بخط المؤلف في مكتبة ابن شقيقه الشيخ ملحم ابن الشيخ راجي اليازجي نزيل زحله .

«مجموعة من منظوماته في اول عهده» وقد سبق انها تحتوي على المحبوكات الشهابية للامير بشير ، والمحصنات للامير ملحم الشهابي ، وثلاث بديعيات ، اثنتان منها فيهما تسمية النوع ، والثالثة بدونها ، وهي من مخطوطات مكتبتي كما سبق ذكرها .

« رواية هرون الرشيد » رواية تمثيلية ألفها ومثلت في المدرسة البطريركية في بيروت . فيها نثر يتخلله نظم ولا نعلم عنها شيئاً .

« تنقيح بحث المطالب للمطران جرمانوس فرحات الحلبي » ضبطه بنفسه ونسخه بقلمه شارحاً ما اشكل منه وهو في خزانة كرسي بيروت المارونية .

« تنقيح مواعظ يوحنا الذهبي الفم » وهذه طبعت بطبعة اليسوعيين سنة ١٨٧٤ . (*)

(*) الاصل المخطوط المنقح بخط يده محفوظ في مكتبة دير المخلص ومنها

« اصلاح قاموس محيط المحيط للبستاني » كان يقف على طبعه وهو مدرس في مدرسته الوطنية .

« اصلاح ترجمة التوراة للاميركان » وهو ترجمة التوراة في الاسفار التي نقلتها لجنة اميريكية للعربية وهو مطبوع مراراً .

« كتاب تكملة الكتب المقدسة القانونية المقبولة من الكنيستين الشرقية والغربية » . كتاب طبع في بيروت سنة ١٨٧٠ وفيه الاسفار المقدسة القانونية الثانوية « Deutérocanoniques » جاء في اخر هذه النسخة بالحرف : « ان العالم الفاضل الشيخ ناصيف اليازجي نقح اعرابها » .

« مختارات اللغة » في خزانة دير الشرفة في لبنان للسريان الكاثوليك كتاب بهذا العنوان وصف في برنامج المكتبة المطبوع الصفحة ٤٤٨ بما نصه :

« مؤلف هذا الكتاب اشهر من ان يوصف وكتابه هذا يدل على تضلعه من العربية وهو من التصانيف المستحقة اعتبار اللغويين وحجم مخطوطنا ٢٠ سنتيمتر طولاً و١٥ س عرضاً . وقد كتبه بيده مؤلفه الشيخ ناصيف اليازجي اللبناني » وجاء في الصفحة الاولى : « قاموس الشيخ ناصيف اليازجي . هذا الكتاب خط المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي اللبناني الشهير رحمه الله تعالى» (اه)

اهداه الى المكتبة حضرة الڤيكونت فيليب دي طرازي في ٢٨ ايار سنة ١٩٠٧ م

***

وللشيخ ناصيف منسوخات كثيرة بخطه لم اقف عليها كلها ولكن الذي

« منتخبات لغوية » كتاب كبير بخط يده في مكتبة دير الشرفة .

الخوري قسطنطين الباشا ب م

وقفت عليه منها هو :

« ديوان ابي الطيب المتنبي » نسخة رأيتها بخط يده عند ابن شقيقه الشيخ ملحم اليازجي نزيل زحلة . وعليها بعض تعاليق وشروح مما كان ينوي ان يضعه من التفاسير لشعر المتنبي . وهذا الذي اعتمد عليه الشيخ ابرهيم وجمعه في كتاب « العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب » المطبوع في بيروت .

« تاريخ الامير حيدر احمد الشهابي » وقفت على نسخة منه كانت في دار الامير يوسف اسماعيل اللمعي في بكفيا وهي بخط اليازجي . في اولها تاريخ شعري لضريح بسترس بن انطون بسترس، ومجموعة اخبار ابرهيم باشا المصري لما كان في سوريا سنة ١٨٣١ — ١٨٤٠ ، وفي خزانة الرسالة الاميركية في بيروت نسختان بخط اليازجي . ومختصر لهذا التاريخ نسخة ثالثة هناك .

« ديوان الفارض » توجد هذه النسخة عند احد اللبنانيين بخط الشيخ ناصيف كما اخبرني حضرة الاب انطونيوس شبلي الراهب البلدي الماروني . وخطه يميل الى الحروف الفارسية مما يدل على ذلك . وهو نسخة متقنة مضبوطة .

شعره :

من راجع دواوين اليازجي المطبوعة التي مرَّ ذكرها و « فاكهة الندماء » وغيرها مما جمعته من مخطوطات مختلفة لم تطبع، عرف ان الشيخ كان ذا اخلاق سامية وآداب رفيعة لانه كان يحافظ على ان لا يمس احداً في شعره او نثره ولا ينتقد انتقاداً مراً لما يطّلع عليه بل كان منصفاً نزيهاً . فما وقفت عليه من شعره الذي لم يطبع ، قوله في مرضه الاخير قبل موته مستغيثاً ، من قصيدة طويلة قال فيها :

يا ايها المولى الرفيع المنزل   انت الاله وكِلمة الله العلي

من اعلم الامواج انك ربما حتى استكنت حين قلت لها امهلي
وعواصف الامواج قلت لها قفي فتوقفت حالاً بغير تمهل
ومخلع ما كان يمشي فارغاً مشَّاه قولك : يا فتى قم واحمل . . .
فمضى وقد حمل السرير ومهده من فوقه ومشى كمشي مهرول
ولعازر المدفون ضمن مغارة سيكون فيها عن قريب قد بلي
ناديت : قم واخرج . فقام مبادراً بعد الخروج كانه لم يدخل
شهد اليهود عجيبة بقيامه ممن سواك نظيرها لم يفعل
فَعلَتْ رجال الله كل عجيبةٍ من بعد سبق تضرع وتوسلِ
وتراك تفعل ما تريد بكلمة او بالارادة دون لفظ قد تلي
تقضي بكلمتك الامور ، فكل حر م ف منك وجه الارض منه يمتلي
يا حسن ايماني كطود شامخ بك عن يقين لا كحبة خردل
وعسى كايماني الوطيد يكون لي ابداً كوعدك في الزمان الاول
يا واهباً نعم الشفاء لمؤمن عما سوى ايمانه لم تسأل
هب لي الشفاء ، وما بقي من مدتي لا اشتغل بسوى كلام عنك لي
اخطأت فاصفح ان نذري واجب لك ان فعلت كذاك ام لم تفعل
واذا اغتررت فعلت ما سيقود لي ندماً عليه ان رايتك مخذلي
أنت الرجا والمرتجى وبك النجا وعليك في كل الامور توكلي
الى آخرها . . .

وله القصيدة المشهورة لما كان يدرّس في دير المخلص سنة ١٨٦٦ وهي :

الى ديرِ المخلِّص يا غلامُ هلمَّ بنا فيا نِعْمَ المقامُ
ترى ما تشتهي عيناكَ فيهِ وتسمعُ ما يليق بهِ الغرامُ

مقامٌ قد تصدَّرَ في جبـالٍ كتاجٍ فوقَ مفرقِهـا يُقامُ
تنالُ البحرَ منهُ يدٌ وأخرى تنـالُ الثلجَ أسقطَهُ الغمامُ
على الدير المشيَّد باسم ربٍّ صلاةُ الله تُتلى والسـلامُ
بهِ حلَّ الاله فكانَ عرشـاً تحيطُ بهِ الملائكة الكرامُ
ترى رهبانهُ من كلِّ قطرٍ كعقد الدرِّ ادمجهُ النظامُ
قد امتزجوا بحبِّ الله شخصاً كمـا بالمـاء يمتزج المدامُ
رجالٌ شغلهم في كلِّ حينٍ دعـاءٌ او صلاةٌ او صيامُ
يقيمونَ الصلاة بجنحِ ليل وقبلَ الصبح في غلَسٍ تقامُ
لهم في الليـل ترتيلٌ رخيمٌ بهِ من كلِّ عـاطفةٍ هيـامُ
تغرِّدُ حينَ تسمعُهُ القماري ويَطربُ حـينَ يسمعه الحمامُ
عليهم من ظلامِ الليل ثوبٌ واوجهُهُم بهـا يجلى الظـلامُ
وفيهم مـن تقشُّفهم سقامٌ ومن صلواتهم يشفى السِقامُ
وعندهمُ الرصانة في وقار يزينهـا خشوعٌ وابتسـامُ
ومنهم كلُّ منطيقٍ بليغٍ له في كلِّ مسألةٍ كلامُ
قد انقطعوا عنِ الدنيا لزهد فـأعينهم عن الدنيا نيـامُ
يرونَ الموتَ في مرضاةِ ربٍّ حياةً في النفوسِ لهـا دوامُ
عليهم من أفاضلهم رئيسٌ لامر الكلِّ في يدهِ زمـامُ
يلقَّبُ بالكحيل نعَمْ كحيلٌ بعين بصيرةٍ لا تستهـامُ
سليم النفس من وضر المعاصي يَلومُ على الذنوب ولا يُلامُ
يصيبُ بلحظهِ كبد القضايا وليس يروعه منها ازدحامُ
حكى ديوانه ديوانَ مُلكٍ بـه وزراءُ تدبيرٍ قيـامُ

هُمُ العَمَدُ العظامُ بحسن رأيٍ اذا دعت المهمات العظامُ
نزلتُ بهم وراحلتي عليها من الاحمال علمٌ لا حطامُ
وتلك كرامة يُسعى اليها وتبقى بعد ما تبلى العظامُ
خدمت بداية الايام فيه لجاهٍ وقلَّ ما سبقَ الفطامُ
لعلَّ الله يجعل لي ثواباً نؤرخهُ فيخدمني الختامُ

وقال يرثي الطيب الذكر اثناسيوس الصباغ رئيس اساقفة صور المتوفى في ٢ ت ١ سنة ١٨٦٦ وهي مما ليست في دواوينه المطبوعة :

قف واستمع نوح (صور) مثل من فقدا اباه او مثل ام فارقت ولدا
ناحت على فقد مطران هياكلها كادت تذوب له من وحشة كمدا
نادت (اثاناسيوس) قم للوداع فما القى سماعاً ولا اعطى جواب ندا
كانت تؤمل ان يبقى لها زمناً ياويحها ما درت ان الفراق غدا
قد اغمض البين عينيه بلا بصر لكنه سار فاستجلى طريق هدى
اتى من الله داع نحوه فدعا سراً فلبى فقال انهض فمدَّ يدا
نفس من الجوهر القدسي قد خلقت طارت اليه وابقت للثرى جسدا
جاءت ملائكة الرحمن تحملها فوراً الى حيث راحت تخرق الجلدا
تبكي المنابر من حزن عليه كما قد كان يبكي بها في الوعظ مرتعدا
ويذكر الشعب صفو الود منه كما قد كان يذكرهم ان قام او قعدا
كانت له غيرة في قلبه اتقدت لو داخلت قلب صخر بات متقدا
يهتم في كل شخص كالضمين له من ربه ان شقي يوماً وان سعدا
من كان يفدي بنيه من محبته بنفسه لم يجد مما اعتراه فدى
لو كان يفدى اسير الموت ما قبضت يد المنية من اهل الغنى احدا

هذا رسول شديد الباس مقتدرٌ متى اتى لا يؤخر لحظة ابدا
يسابق البرق من اقصى البلاد الى اقصى البلاد ويحصي اهلها عددا
الصبر مر ولكن عند نسبته للموت احلى من القطر الذي عقدا
لو خيَّر الملك الاعلى تخيَّر ان يعيش عبداً وينجو من شراب ردى
طوبى لمن عاش في الدنيا على ثقة من ربه انه يعطيه ما وعدا
ذاك السعيد الذي طابت سريرته ان عاش او مات لا يدري له نكدا
ليس المعيشة قبل الموت تحسبها بل بعده فهناك العيش قد وجدا
وكل حي لهذا الموت مولده وكل ميت لذاك العيش قد ولدا

وقال يجيب المرحوم فرنسيس فتح الله مراش الحلبي على قصيدته التي مطلعها :

هلَّا نجاز فطاب موعدها يا ليت اضحى كذا توعدها

وهي في ديوان المراش المطبوع (مرآة الحسناء) في الصفحة ٣١٧ .

وقصيدة اليازجي الجوابية ليست في دواوينه المطبوعة . وهي :

دار التي شطَّ عنك معهدها قريبة والنفار يبعدها
وحبذا بعد ما يرام عن النفس م التي لا تناله يدها
تلك الفتاة التي يشيب لها عن فيئة العاشقين امردها
مقصورة في الخيام مقلتها يقطع بيض الصفاح اسودها
رخيمة النطق ضم مبسمها مثل الذي ضمه مقلدها
كأن ذاك الحديث قافية من ابن (مراش) قام ينشدها
ذاك الهلال الذي يلوح به نور البدور الذي سيكمدها
غصن نشا في الرياض مقتبلاً والدوح من مثل ذاك مولدها

افـاده الله في حداثته مواهباً لم يزل يجددهـا
اقلامه كالسيوف ماضية مرفوعة الشان اذ يجردها
مواهب يشهد العدو لها برغمه والصديق يحسدها
قامت تخوض الظلام طالعة صبحاً الى ضوئه يرددها
لله في الخلق حكمة بهرت ونعمة لا يغيض موردها
من كان يبغي دوام نعمته فلا يكن في الزمان يجحدها

وقال يمدح مصطفى فاضل باشا ابن ابرهيم باشا المصري الشهير لما قدم سورية بعد حوادث سنة ١٨٦٠ مما ليس في دواوينه .

شبهتها عبثاً بالبدر يا رجلُ من اين للبدر هذي الاعين النجلُ
واين للظبي ثغر مثل مبسمها واين للغصن هذا الخصر والكفلُ
لا تغضبي اليوم من جهل الم بنا فتلك غاية ما ادراكنا يصلُ
كنا نشبه (ابرهيم) من قدم بالليث والليث منه خائف وجلُ
ذاك الذي كانت الاقطار ترهبه وكان يهتز منه السهل والجبلُ
وهو الذي تشهد الدنيا بسطوته والله يشهد والاملاك والرسلُ
مضى واخلف ذكراً غير مندرس على مدى الدهر مضروباً به المثلُ
واخلف (المصطفى) من بعده بدلاً ترضى العباد به يا حبذا البدلُ
نجل العظيم عظيم مثل والده كالبحر ينصب منه العارض الهطلُ
من كان من نسل (ابرهيم) حق له ارث السيادة وامتزت به الدولُ
فرع تولد من اصل قد افتخرت اصوله وازدهت اجداده الاولُ
مهذب باهر الاوصاف معتصم بالله عذب السجايا ماجد بطلُ
قد صح قولاً فما في نطقه خلل وجاد فعلاً فما في خطوه زللُ

واعظم الناس في دنياه مكرمة　　من كان يجمع فيه القول والعمل

ومن آدابه قوله في الذين يحبون الهجو :

يا ناظمين الهجا خلُّوا قصائدكم　　لمن يبين لها في عرضه اثرُ

اذا ضربتم بسيف قاطع حجراً　　تثلَّم السيف اذ لا يشعر الحجرُ

وفي قصيدته المشهورة في مجمع البحرين التي مثَّل فيها مزاياه وصوَّر آدابه مثل غيرها من قصائده ما يدل على نزاهته وحسن نياته . ومطلعها :

اني لقد جربت اخلاق الورى　　حتى عرفت ما بدا وما اختفى

كل يذم الناس فالذي نجا　　من ذمه يدخل في ذم الملا

والمرء مطبوع على البخل اذا　　جاد فجوده عن العرض فدى

يريد ان يغترف البحر ولا　　يترك منه قطرة تروي الظما

يدنى من المحسن طوداً قد رسا　　وليس ينسى ذرة ممن أسا

الى آخرها . واذا اردنا ان ننشر امثلة من قصائده المطبوعة والمخطوطة نحتاج الى مجلد ضخم ، فبمراجعتها غنى عن نشرها .

واما مقاطيعه فهي آية في البلاغة . منها قوله مضمناً قبل موته وهو مفلوج :

الناس تنسب لي ما فوق مرتبتي　　من كل علم وفن لست ادريه

يا ايها الناس قولوا حين غبت كما　　شئتم فما لثناكم من يماريه

فان حضرت دعوا عني مبالغة　　«فصاحب البيت ادرى بالذي فيه»

وله زيادة على قصيدته المشهورة المطبوعة بعنوان « القول الصحيح في لاهوت المسيح » التي مطلعها :

نحن النصارى آل عيسى المنتمي　　حسب التأنس للبتولة مريم

وتلك ابيات لا محل لذكرها الآن .

ومن مقطوعاته قوله من زهدياته :

سيفتح الله باباً لَستَ تعرفه ومنهجاً غير ملحوظ بابصار
اذا قطعنا رجاء النفس من فرج فاننا قد قطعنا رحمة الباري

وقوله في خدمة العلم :

احرقت فكري بالعلوم فلم أنل الا اذى عيني بنسف رماده
وكتبت ما قد احزن القرطاس من تاف فكان الحبر ثوب حداده

وقوله :

جربت اخلاق الزمـان واهله فعرفت يومي قبل أمس الدابر
وصبرت لكن حيث لم يك في يدي دفع البلاء فاين فضل الصـابر

وقال في مؤلفات البطريرك مكسيموس مظلوم الحلبي مما نشره في كتابه « حوض الجداول » :

ان تأليف الحبر مظلوم يحيي ذكره شاكراً جميل الهباتِ
وكما كان في الحياة مفيداً هكذا لا يزال بعد المماتِ

وقوله في الشعر :

ارى الشعر مثل الماء يجري فبعضه اجاج وبعض بالزلال يسيلُ
واعذبه مـا في معـانيه عِظَمة وفي اللفظ منه رقة وقبولُ
وفي الشعر لفظ دون معنى كأنه فعولن مفـاعيلن فعولُ فعولُ
تناهبه اهل الزمان الذي مضى فلم يبقَ الا ارسمٌ وطلولُ

ومن حكمه قوله :

لا تعط حكمكَ ما بدا لك امره حتى تقوم على حقيقة امره

وقوله :

كل ما ترتضيه سهل ولكن عثرات الامال ليست بسهله

وقوله :

ان كان خير الناس من ينفع الناسَ م فقل هذا ولا ترهبِ

وقوله :

وكلٌ كريم النفس من مال غيره وقل كريم النفس من نفس ماله

وما كان لم تتعب عليه يمينه يهون عليه بذله بشماله

وطُلب منه مرة ان يقول في بخيل فكان كلامه هكذا :

قد قال قوم ان خبزك حامضٌ والبعض أثبتَ بالحلاوة حكمه

كذب الجميع بزعمهم في طعمه من ذاقه يوماً ليعرف طعمه

ولم يقل من الهجاء سوى هذين البيتين بهذا الادب العالي ، وبيت آخر .
ولم نجد له غير هذه الابيات الثلاثة في الهجاء . وهو يدل على كرهه ذلك
مصداقاً لقول الشيخ احمد فارس الشدياق في قصيدة يمدح فيها اليازجي :

ما كان يهجو ولا يهجى ولا حجبت ذكا قريحته احلاك حدثانِ

فلم يضع ساعة من عمره عبثاً ولم يضع قوله في غير احسان

اما قصائده التي لم تطبع فنها قصيدة يذكر فيها مأدبة دعاه اليها
الامير كان وهي من هذا النوع الدال على سمو اخلاقه نشرتها في مجلتي الآثار
(١ : ١٢) وقصائد اخرى يرثي بها سبيريدون طراد البيروتي ، وجرجس العن
من زحلة ، وجبرائيل شحاده البيروتي . الى غير ذلك من المدائح والمراثي والحكم
ونحوها . وكان الشيخ ينحو نحو المتنبي ولا سيا في الحكم والاوصاف حتى
انه كان يقول : « المتنبي يسير في السماء ، والشعراء على الارض » . ورأى
مرة بيتين كتبا على نسخة من ديوان المتنبي المخطوط لاحدهم وهما :

اسأل الله اله العرش م ذا الافضال ربي
حسن نظم الأرجاني م وحظ المتنبي

فكتب تحتها قوله :

قد تمنى حسن حظ فأرانا حسن لب
طلب الممكن اذ لم يرجُ نظم المتنبي

وكان كلما طالع قصيدة للمتنبي بليغة يعجب بها ويقول : « الله يقتل الذي قتله لانه لو ظل حياً اكثر ولم يقتل لكان اتحف الادب بقصائد رنانة ربما تكون ابلغ من التي قالها » .

ولقد مدحه كثير من العلماء من مسلمين ومسيحيين بقصائد تدل على منزلته في عالم الادب جمع بعضها في « فاكهة الندماء » الذي مرَّ ذكره وهو مطبوع، وبقي الآخر مخطوطاً جمعته في كتاب « الغرر التاريخية » المار ذكره . وكذلك رثاه بعد موته كثير من الشعراء جمعت قصائدهم في الكتاب المذكور .

وهذه اسماء الذين رثوه مما وقفت عليه منهم . واسماؤهم بحسب حروف الهجاء وهم: ابرهيم سركيس، وابرهيم يوحنا فريج، وابرهيم اليازجي (ولده)، واحمد فارس الشدياق ، واسكندر ابكاريوس، وانطون طرازي (الكونت) ، وانطونيوس قندلفت، (الخوري السرياني نائب رئيس اساقفة حلب) وبولس زين الغزيري، وجرجي السبط (صرايا) الدمشقي، وسليم تقلا، وفرنسيس مراش الحلبي ، ونقولا بك نقاش (القانوني) ، ووردة اليازجي (ابنته) ، ويوسف السيوفي ، ويوسف الشلفون .

ومن الصحف الاجنبية التي رثته جريدة (لاكرانيك) الانكليزية في مدينة لندن، ارسلها سليم بسترس المقيم اذ ذاك في مدينة ليفربول من بلاد

الانكليز الى مجلة «النجاح» البيروتية ليوسف الشلفون. فنشرت ترجمة الرثاء في المجلد الثاني والجزء ال (٣٧) بتاريخ ٢٢ ايار سنة ١٨٧١ الصفحة ٥٨٦ وهذا هو تلخيصهُ بالحرف : « ان الشيخ ناصيف اليازجي اشهر شعراء العرب في هذا العصر قد توفي في بيروت في عمر الاحدى والسبعين سنة، وكان مولده في قرية تدعى (كفرشيما) من جبل لبنان وقد الف مؤلفات في العربية وهو في عمر الاحدى والعشرين وقد مدحت تآليفه في المدرسة العربية في بلاد جرمانيا وترجم منها شيء الى اللغة الجرمانية ايضاً .

وبالحقيقه ان الآداب العربية قد تكبدت بفقدانه خسارة عظيمة لا تعوض وقد ترك مؤلفات عديدة في كافة الفنون العربية تخلد له ذكراً مؤبداً وقد تأسف عليه جميع اهل الادب من ابناء وطن واجانب . وفي شعره توجد قصيدة مدح بها جلالة ملكة الانكليز وقصيدة ثانية مدح بها ايضاً البرنس دي غال ولي عهد انكلترا (*) حينما زار الشرق واخذ على ذلك من البرنس المشار الية تذكاراً ثميناً » اه .

تواريخه الشعرية

اما ما تفوق به الشيخ من منظومه غير ما ذكر فهو قصائده التاريخية المشهورة وتواريخه الشعرية التي ضمنها كثيراً من آيات الكتاب المقدس في العهدين القديم والجديد والحكم والآيات والحوادث التي قضت بالعجب العجاب من جودة قريحته وسعة اطلاعه . فنورد بعض امثلة منها مما لم ينشر في دواوينه الثلاثة . من ذلك قوله يؤرخ المستشفى (الخستخانة) الذي بناه البطريرك المطوب الذكر مكسيموس مظلوم في دمشق سنة ١٨٤٨ :

(*) راجع دواوين الشيخ ناصيف المطبوعة .

مكسيموس المظلوم بطركنا ابتنى داراً لطب مريضنا كالمحرسِ
شملت محبتُه الجسوم كما اقتضى تاريخ غيرتـه وحب الانفسِ

وقال يؤرخ كنيسة الروم الكاثوليك التي بناهـا في القدس الشريف البطريرك مكسيموس مظلوم سنة ١٨٤٨ :

في القدس مكسيموس المظلوم بطركنا
انشا لنـا بيت قدس فيه نعتكفُ
بيت لمريم قد سرت كمـا حزنت
به واحوال هـذا الدهر لا تقفُ
ذاق ابن داود فيه مـا نؤرخه
فـارتد من بيت داود له الشرفُ

وقال يؤرخ بناء واجهة في دير المخلص العامر سنة ١٨٣٠ بزمن الرئيس العام الخوري بطرس كحيل الدمشقي :

قامت بحول الله خير منازل نظر الكحيل بها مديد وافرُ
بشرى التزيل يقول في تاريخها ابداً بها وجه المخلص حاضر(*)

وقال يؤرخ بناء كنيسة سيدة النجـاة في زحلة وهي كاتدرائيتها سنة ١٨٥٢ :

بناه السيد المطران من قد دعي باسيليوس الشاهياتي
فزر ان شئت بالتاريخ تنجو مقـام البكر سيدة النجاة

وقال يؤرخ بناء كنيسة مار الياس الطوق في زحلة للرهبانية الشويرية

(*) في نسخة المخطوط كلمة « ظاهر » وهي تزيد في ارقام التاريخ عن السنة المذكورة فأبدلناها بكلمة « حاضر » فصح التاريخ مما يدل على تصحيفها من الكاتب .

التي بنيت سنة ١٧٩٣ :

زوروا حمى بيعة كالنجم طالعة　　قد شيدت باسم ايليا الغيور هنا
في بابها لاح تاريخ يقول له　　يا حي كن شافعاً يوم القضاء بنا

وارخ بناء قبة لكنيسة في دمشق سنة ١٨٦٧ انفق عليها انطون الشامي من ماله :

اليوم قبة بيت القدس قد رفعت　　نظير قبة عهد الله في القدمِ
هاتيك تهدى الضحايا تحتها بدم　　وهكذا تحت هذي دون سفكِ دمِ
مظلة فوقها قامت تظللها　　راياتُ اجنحة الاملاك كالخيمِ
جمالها يبهج الابصار منظره　　وحولها تطرب الاسماع بالنغمِ
أكرمْ برافعها انطونَ من رجل　　للشام يُنسب محموداً بكل فمِ
في باب سيدة الابكار قام كما　　أرخت يرجو لديها حسن مختتمِ

ومن قديم تواريخه قوله يؤرخ ضريح المعلم الياس اده اللبناني المتوفى سنة ١٨٢٨ وكان صديقه وكاتباً عند الجزار والامراء الشهابيين :

حَكمَ الالهُ بما ارتضى　　واختار للفردوس عبدَهْ
والحال قال مؤرخاً　　هذا رضى إلياسِ إدَّهْ

وارخ وفاة المطران اغناطيوس عجوري اسقف زحلة الكاثوليكي سنة ١٨٣٤ :

هذا ضريحٌ غاب فيه كوكبٌ　　قد كان مُتَّشحاً بثوبِ النورِ
وعلى جوانبه المؤرخ نادبٌ　　مطراننا اغناطيوسْ عَجُّوري

وقال يؤرخ وفاة خطار سركيس والد خليل سركيس صاحب لسان الحال والمطبعة الادبية في بيروت ، سنة ١٨٤٧ :

خطَّارُ سركيسَ في هذا الضريح ثوى لكن له في مقاصير العُلى دارُ
يقول في طي تاريخ أعِدَّ له انا الى جنة الفردوس خطَّارُ

وقال يؤرخ وفاة امرأة اسمها رفقا عاشت ثلاثاً وثلاثين سنة وذلك سنة ١٨٤٠ :

هذا ضريحٌ قيل بل صدفٌ حوى في شهر إشباطٍ يتيمةَ دره
قالت لدى تاريخه اصحابُها قد رافقت رفقا المسيح بعمره

وقال يؤرخ وفاة يوسف الشلفون سنة ١٨٢٨ :

لما قضى ومضى الى دار البقا نفساً وذاق الجسم كاس منونه
خطَّت يد الانوار تاريخ البها من حول تربة يوسف الشلفونه

وقال يؤرخ وفاة مرتا بنت عازر العكاوي سنة ١٨٢٣ :

الا يا ضريحاً نلت ذخراً مكرماً سقتك غوادي الصبح لطفاً وانعماً
وبشرا فقد اودعت تربك درة بها اصبح النقاد صباً متيما
فتاة لها بين الملائك زفّةٌ وقد تركت للناس في الارض مأتما
فقال على علمٍ مؤرخها بها لقد لحقت مرتا بعازرَ في السما

وقال يؤرخ وفاة الياس جبور المعلوف من كفر عقاب سنة ١٨٦٦ :

ابكى بني المعلوف شخص قد مضى عنهم فودعهم وقال تطمأنوا
شهدت تواريخ مقررة لنا الياس حي في السما لا تحزنوا

وارخ دار الامير اسماعيل الشهابيّ سنة ١٢٤٥ هجرية (١٨٢٩) :

اذ بناها المولى الشهابيُّ اسما عيل نسلُ العليّ من قد تسامى
جاء بعض المؤرخين ونادى ادخلوا مرحباً وقولوا سلاما

وأرَّخَ داراً انشأها السيد غريغوريوس عطا الزحلي في ابرشيته بقرية يبرود

سنة ١٨٤٣ :

غريغوريس مطراننا ابن العطا ابتنى لنا خير دار حبذا العمل المرضي
على بابها خط المؤرخ انه بِنا أحد الاقمار برجاً على الارض

ومن تواريخه قوله يؤرخ وفاة نخلة ثابت سنة ١٨٥٩ :

لنخلةِ ثابتٍ قبر ينادي أيا ويلاه من فقد الشبابِ
فبادره لسان مؤرخيه وقال النخل يزرع في الترابِ

وقال يؤرخ وفاة يوسف العسيلي الذي مات قتيلاً سنة ١٨٤٧ :

هذا العسيلي الذي نزل الثرى كالغصن من حمر المنايا يقصفُ
ومسطر التاريخ انشد حوله هذا قميصك شاهد يا يوسفُ

الى كثير من امثال هذه البدائع التي شحذ لها قريحته الوقادة فكانت فرائد للقلائد. وقليل مما ذكر مطبوع .

اخلاقه وصفاته

تفرد الشيخ بصفات ممتازة واخلاق سامية حتى قال بعضهم فيه :

ملأت محامده المسامع مثلما ملأ النجوم صحائف الآفاقِ
فيه ترنم كل شادٍ ناشدٌ وتغنت الورقاء في الاوراقِ

فلذلك كان رفيع المنزلة ترنم الشعراء بآثاره وآدابه . فقال الشيخ عبد الباقي العمري البغدادي من قصيدة مدحه بها :

لو كان يرقى المرء في الشعر العلى لعلا على الشعرى بعشر مراتبِ
تصبو الى اخلاقه ريح الصبا وتميل اعطافاً كل سارٍ سارب

وكان اليازجي يحب التروي والتثبت والصدق ، وكان لا يبتُّ حكماً لم يتحققه ، ولا يؤكد خبراً ما لم يتمحصه ، ولا يثبت رواية لم يعد النظر

عليها . وكثيراً ما كان يقول : « انني لا احب ان اذكر قصة او حادثة اذا كانت بعيدة عن التصديق ولو كنت متأكداً صدقها ، خوفاً من ان السامع يظن انني غير صادق ».وكان في نثره يحب السهولة ، سريع الخاطر ، يرتجل الكلام ويتمثله بأساليبه ويسبكه في مخيلته ثم يمليه او يكتبه فلا يحتاج الى تنقيح او تهذيب . ومما روي عنه ، وهو من الغرابة بمكان ، انه ألف المقامة اليامية من كتابه « مجمع البحرين » ، نثرها ونظمها ونكاتها ، على ظهر فرسه وهو مسافر باهل بيته الى بحمدون سنة ١٨٥٣ للاصطياف فيها ، فتمثلها على صفحات مخيلته في طريقه ولما انتهى الى بحمدون دونها على القرطاس ولم يغير فيها حرفاً . ومما يدل على سمو اخلاقه ورائع ادبه ان احدهم قال امامه : « ان الشعراء يمدحون من لا يستحق المدح ويذمون من لا يستحقون الذم » . فقال الشيخ : « لعلهم مدحوا هذا القائل وذموا من هجاه » . وكثيراً ما كان يتمشى وهو ينشد متمثلاً بقول المعري وهو :

يا ليت شعري وهل ليتٌ بنافعةٍ ماذا وراءك وماذا انت يا فلكُ
كم خاض في بحرك الاقوام واجتهدوا دهراً فما عرفوا شيئاً ولا تركوا

وعلى هذه المبادىء وغيرها مما لا محل للافاضة فيه نشأ الشيخ واسرته بآداب رفيعة تشف عنها الكتابة لانها الصورة النفسية للكاتب . فلا مشاحة ، والحالة هذه ، ان يكون كل ما ذكرناه من آثار الشيخ وما سنذكره دليلاً على اخلاقه العالية :

بعض الاناشيد والازجال التي نظمها

نظم الشيخ ناصيف اناشيد كثيرة للاميركان نشروها في كتب التراتيل الروحية عندهم . من ذلك نظمه المئة والخمسين مزموراً للنبي داود طبعت في

كتاب صغير بقطع جيبي . قال في المزمور الاول :

طوبى لمن لم يمشِ في مشـورة الاشرارِ
بل دائماً يسلك في مسـالك الابرارِ
من لم يجالس هـازئاً بربه القـادر
بـل دائماً يهذُ في ناموسه الطـاهرِ
فهـو كغرس نابت يجري عليهِ المـاء
اثمـاره تجنى كذا اوراقه خضراء
وكلمـا يصنعه يكون في نجاحِ
ليس كذا الاشرار بل كالعصف في الرياحِ
لذاك الاشرار لا تقوم في الدينِ
ولا الخطـاة صحبة م الابرار في الحينِ
لان ربي عـالم بطـرق الابرارِ
أمـا التي هالكة فطرق الاشرارِ

وقال في المزمور المئة والسابع والثلاثين :

جلسنا هنالك في بابل على شط انهارهـا
وهاج بنا شوق صهيون اذ بكينا لتذكارهـا
بصفصافها الغض اصحابنا تعلق اعوادهـا
سئلنا تراتيم صهيون أن نراجع انشادهـا
أتنشد ترنيمة الرب في مكانٍ غريب مهينْ
وصهيون إن أنسها تنسني عيني وانسى اليمينْ
وان لم اكن ذاكراً موطني باورشليم القـديم

ليلصق لساني بحلقي فلا يدور ولا يستقيم
ايا بنت بابل طوبى لمن يجازيك عن حالنا
يدقّ بنيك بصخرٍ كما فعلت باطفالنا

ومنها اناشيد نظمها للمدارس التي كان مدرِّساً فيها . منها نشيدة لرواية «يوسف الحسن» التي مثلت في المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني في بيروت :

يا يوسف الحسن قلبي عليك بالشوق ذابا
ما طاب بعدك عيشي لكن لي الموت طابا
ويلي على حسن وجه قد فاق كل المحاسن
ونظرة منه عندي تسوى جميع الخزائن
يا ايها الذئب هلّا رحمت ذلّ الغلام
قد صرت اشرف وحش اذ نلت اذكى طعام
شربت دماً زكياً سقيتني الموت فيهِ
ربيته لك حتى بُلِغت ما تشتهيهِ
هذا القميص الموشى اتى بنقش جديدِ
كأنّهُ من دموعي بنظم دُرٍّ نضيدِ
يا ليتني متُّ قبلا ولا ارى ما اراهُ
من ذا يسلي فؤادي وهل حبيبٌ سواه
يا يوسف الحسن ويحي متى تعود الليالي
هيهات ذلك يأتي وانت في الارض بالي

وقال نشيدة لرواية في المدرسة البطركية الكاثوليكية في بيروت :

قد لاحت شمس الانوار في أفق الاذهان

وامتدت بين الاقطار يا اهل الاوطان
فاستجلوها بالابصار وادعوا للرحمن
في حفظ الغازي الجبار مولانا السلطان

دور

قد مات الجهل المفقود من افكار الناس
اذ عاش العلم الموجود يجلو صفو الكاس
نادى: قوموا في الاسحار وادعوا للرحمن
في حفظ الغازي الجبار مولانا السلطان

دور

هيا هيا يا اولاد واشدوا بالانغام
جدوا في الفحص المعتاد عن ماضي الايام
اعطوا شكراً للزوار وادعوا للرحمن
في حفظ الغازي الجبار مولانا السلطان

الى كثير من امثال هذه الاناشيد البديعة التي ضمَّنتُها كتابي « الغرر التاريخية » المطوّل . وله ازجال بديعة اشتهر منها قوله للشيخ غندور سعد الخوري صالح ، من رشميا ، والد حبيب باشا السعد ، وكان عند نظمه ابن عشر سنوات . قال فيه :

شابهت بدر النور بالخلقه لِمَن لبست الجبة الزرقا
انت القمر والبدر يا غندور لكن من أين للبدر هاالمشقا

دور

انت القمر والبدر يا غندور بالطالع المسعد وفيض النور

برجك بقلبي لم يزل معمور

خيمت في شرقيه . . . حتى انشغل قبليه . . . وأنت المخبا فيه

هذا السبب غرقان هاالغرقا

دور

هذا السبب محجوب عن عيني والحجب ما بينك وما بيني

بالله لا تنكر وفا ديني

دين المحبة عليك . . . تنظر عيوني ليك . . . وأش كان يصير يا بيك

لنك بتمرق صوبنا مرقا

دور

لنك بتمرق صوبنا مره وأنظر على صُبح الجبين غره

حلوه على حروف البكا مره

سبحان من سواك . . . يا بدر في الافلاك . . . حيا الذي سماك

اسمك طلعلو في البلد شهقه

دور

إسمك حسن وانت الحسن يا سيد والكل من شانك خدم وعبيد

سلمت لك الروح إيد بإيد

قال اكتب الصفه . . . بادرت بالخفه . . . تكتب على الشفه

وانا محبب شفتك ورقه

دور

وانا محبب خدك المنثور قمت إقطفو بغيبة الناطور

ضحك وقال لي آه يا مغرور

قطف الخدود ما تمّ . . . غير للنظر والشمّ . . . هذا خضاب الدّمّ

وان كنت مشبوه انشقو نشقه

دور

وان كنت مشبوه استمع مني واعلم وعلّم صاحبك عني

شرك الفلك مكتوب في فني

عادة عيوني الدّعج . . . بالقلب ترمي وهج . . . وانا بياض الثلج

والثلج يعمل بالصدر حرقه

دور

والثلج من جسمي انا محسوب والشمس وجهي كيف ما بيدوب

قلنا فدوه العاشقين بقلوبْ

قال ياحكيم الروم . . . انت النبي المعلوم . . . متى القيامه تقوم

قلت القيامه ساعة الفرقا .

وله مواويل وازجال غير هذه .

الغازه واحاجيه ومعمّياته

للشيخ ناصيف كثير من هذه البدائع نشر اهمها في مقاماته « مجمع البحرين » فلا لزوم لاعادتها هنا مع شهرة الكتاب وتداوله بين الايدي . على انني جمعت له ما وقفت عليه في بعض المجلات والجرائد « كالجنان » وغيرها . من ذلك قوله من المعمّى في اسم عُمَر .

مِنّا السلام على دار اقام بها ظبي تحجب عن اجفان مضناهُ

ان لم تنل طرفاً من رمق طلعته عيناي فالقلب بعد العين ترعاهُ

اشار الى حذف القاف من رمق وابدالها بالعين فتصير « رمع » وبالقلب تصير

عمر . فاجابه الشيخ ابو الحسن قاسم الكستي البيروتي بقوله وهو (معمى) ايضاً :

يا من من اسم الذي نهواه يسألنا … وقد اشار لنا عنه معماهُ
فتش عليه اذا ما رحت ترمقه … من بعد شهر بثاني العين تلقاهُ

واراد بهذا الحل قوله بالعين اي الشمس وثانيها بالاشراق القمر فاسقط من قاف قمر التي هي مئة بحساب الجمل ثلاثين التي كنى بها عن الشهر فيبقى سبعون وهي (ع) فتصير كلمة قمر عمر .

ونشر الشيخ لغزاً آخر قال فيه :

اقبلت نحو حمى ربيعة داعياً … باسم اذا كبّرته صغّرتهُ
وسمعت في عكس القضية مثله … باسم اذا عرّفته نكّرتهُ
ولقد سألتك عنهما ورجوت أن … تبدي لنا السر الذي اضمرتهُ

فاجابه تلميذه المعلم شاهين عطيه من سوق الغرب بقوله :

يا ايها الشهم الذي ابدى لنا … لغزاً ، فهاك جواب ما حررتهُ
ضمّنت في ذاك المقال بدعوة … باسم اذا كبرته صغرتهُ
ذاك الفتى المسمى « كليب » ربيعة … اذ حينما كبرته حقرتهُ
وكذا ترى عكس القضية واضحاً … « بالامس » اذ عرفته نكرتهُ

خطبه وقصائده في الجمعيات

قال الشيخ ناصيف خطباً وقصائد عرفت منها ما القاه في الجمعية السورية وهي علمية ادبية ، كان من المرغبين بتأسيسها والمنتظمين في عضويتها اذ عقدت ثلاثاً وخمسين جلسة قانونية ، واكثر من عشرين جلسة عمومية ، برئاسة وليم طمسون . من سنة تأسيسها ١٨٤٧ الى تعطيلها سنة ١٨٥١ . فمن خطب الشيخ في هذه الجمعية خطابه « في علوم العرب » بحث فيه بحثاً مفصلاً في ادوار ترقي

اللغة العربية وآدابها . والقى قصيدة في وداع وليم طمسون الرئيس المذكور عند ذهابه الى اميركا . والقى مقامته « العقيقية » التي طبعت في « مجمع البحرين » . وكان له كثير من امثال هذه الاقوال الناجعة والايات البديعة في المجتمعات والاندية .

نوادره وحكمه وعاداته

كان الشيخ ناصيف مشهوراً بحديثه الطلي ، ومعارفه الواسعة ، وآدابه السامية ، حتى كانت تتناقل الصحف والناس ما يفوه به من النوادر والحكم . فمن اقواله الحكمية الكثيرة « ان الانسان يصحب عقله حتى يصل الى الدين ويصحب دينه حتى يصل الى المال » .

ووضع احد الادباء بين يديه قصيدة ليصلحها له وطلب منه ان يضع على كل غلطة صليباً علامة لها . فبعد ان قرأها الشيخ ووضع على بعض اغلاطها علامة الصليب ، رآها مشحونة بالاغلاط الكثيرة فتوقف ولم يضع على الباقي تلك العلامة ، فلما جاء ناظمها ليأخذها ، تأمل بها فاذا الشيخ لم يضع له علامات الخطإ الا قليلة فسرَّ وتوهم انها خالية من الاغلاط الكثيرة . واشد ما كان خجله لما سأل الشيخ عنها واجابه بقوله : « خفت اذا اكثرت وضع الصلبان عليها ان تصير مقبرة » فخجل ومضى .

وسأله احد تلامذته مرة عن الفرق بين الجملتين الخبرية والانشائية ، فانه لم يفهمها جيداً عندما شرحها له في حلقات الدرس ، وكان زائراً اياه في بيته فقال له الشيخ : الجملة الانشائية مثل قولي لك : خذ هذه السيكارة . فهو كلام لا يحتمل الصدق والكذب لانه لم يقع بعد .

ومن الفكاهات التي للشيخ ناصيف ان الشيخ ابرهيم الحوراني المشهور كان

تلميذاً في مدرسة عبيه الاميركانية وكان استاذه المعلم رزوق البرباري فاعطى تلامذته قصيدة للشيخ ناصيف مطلعها :

كلفت حمل تحيتي ريح الصبا فكأنني حملتها بعض الربى

لا تحمل الريح الجبال وليتني حملتها نفسي فاني كالهبا

فبعد ان شرح لهم الاستاذ الابيات قال الحوراني لاستاذه : « وين راح الشيخ بعمامته حتى يكون كالهبا ؟ » فبلغت هذه القصة الشيخ ناصيف من احد مجالسيه مرة ، ولم يطل الوقت حتى زاره الحوراني في بيروت ، بعد تركه للمدرسة ، فبعد ان عرَّفوه به وقدموا له القهوة ، التفت اليه الشيخ ناصيف وقال له : « شو ثقلت عمامتي عليك حتى قلت ما قلت لاستاذك في قصيدتي ؟ » فخجل الحوراني وقال له وهو يتحفز للذهاب : « لو عرفت انه بدُّو يبلغك خبر العمامة ما زرتك الى يوم القيامة » . فضحك الشيخ وادناه منه وسُرَّ بهِ وبذكائه .

وزار الشيخ ناصيف مدرسة الثلاثة الاقمار الارثوذكسية في بيروت فاحتُفل به احتفالاً شائقاً جداً ونصب له منبر ذو ثلاث درجات ليجلس عليه ويلقي كلمة على ذلك الحفل .

فصعد على الدرجة الاولى فسمع صوت من وقع قدمه ووقف هنيهة صامتاً، ثم صعد الى الدرجة الثانية فكان لوقع قدمه دوي ووقف لحظة لم ينبس ببنت شفة، ثم صعد الى الدرجة الثالثة فكان لوقع قدمه صوت قوي وهو صامت .

ثم التفت الى التلامذة وقال لهم : ايها الطلبة يجب ان يكون تدرُّجكم بالدروس كتدرجي في الصعود الى المنبر : اثبتُّ رجلي قبل انتقالي الى الدرجتين بتثبت متين . وهكذا ينبغي على التلميذ ان لا ينتقل من درس الى اعلى منه قبل تمكنه من اتقان ما قبله فيظهر نبوغه عند اتمام دروسه .

ثم انحدر عن المنبر شاكراً حفاوتهم فكان لكلامه هذا احسن وقع في النفوس وودعه بحفاوة وثناء بعض الخطباء .

كان الشيخ يجلس على مرتبة في بيته ، والكتب منشورة من حوله ، ودواته فنجان زجاجي في علبة خشبية بسيطة ، وامامه كانون النار وادوات القهوة وعلبة الدخان والغليون ، وكان لا يسمح لاحد ان يكنس غرفته خوفاً على اوراقه المنثورة في كل مكان . وكانوا يقولون له كيف تقيم وحدك في هذه الغرفة ، فيجيبهم بقوله : كيف هذا ومعي جماعة الشعراء ؟ وكانت طريقته بالنظم والتأليف ليست في وقت خاص ، بل كان ينظم ويؤلف في البيت او خارجه احياناً ، ويبقي ذلك في ذاكرته الى ان يرجع فيكتبه . ولم يكن يتضايق ، حينما يكتب او ينظم ، من الحركة او الصوت في البيت ، ولم يكن يمحو شيئاً مما يكتب مطلقاً بل كان يحضرهُ المعنى والقالب اللفظي في حين واحد بحسب ما ينبغي ، فلا يضطر للمحو او لتفضيل صورة على صورة ، وكان يقوم كل يوم طلوع الفجر ويغلي قهوته بيده ، وبعد ما يشرب القهوة ويدخن الغليون يبتدئ بالكتابة الى ان يمل ، فيخرج الى الجنينة بجانب البيت ليتفقد بعض المزروعات ترويحاً للنفس ، وبعد ذلك يرجع الى شغله وكتابته الى غير ذلك مما حدثني به ولداه المرحومان الشيخ ابرهيم والسيدة وردة .

مرضه الاخير ووفاته ومأتمه

ولما اصيب بالفالج في شهر آذار سنة ١٨٦٩ حدثت له سكتة دماغية نزيفية بقيت ٣٦ ساعة ، فسببت له الفالج النصفي الذي عطل الشطر الايسر من جسمه عن الحركة ، فاصيب ببحران مدة ايام ، وافاق بعدها وهو لا يستطيع التكلم لانعقاد لسانه بتة ، فاشار بطلب قرطاس ودواة وقلم ، وكتب عبارة الحديث :

« لكم الشفاء بشربة ماء ، وكية نار ، وشرطة مبضع . » وكان ممن يعالجونه تلميذه الطبيب سليم دياب الطرابلسي ، فاراد اختباره ليرى درجة عقله وقوة ذاكرته ، فسأله ان يعرب له « النساء يذهبن » فكتب على ورقة : « يذهبن » مبنية على السكون ، وهي في موضع الرفع بالتجرد ، والنون في موضع الرفع بالفاعلية ، وهما في موضع الرفع بالخبرية عن النساء ، ففيها بناء من ثلاثة اماكن ، واعراب من ثلاثة اماكن . فدهش من عرف ذلك لانه لم ينتبه الى هذا في مؤلفاته ، انتباهه الآن اليه في مرضه ، مما دل على قوة ذاكرته ، وثبات جنانه ، وان عقله لم يصب بشيء مع هذا المرض العضال في دماغه .

فعاد الى نظم الشعر وحل المسائل كما كان قبلاً . على انه لم يكن يستصعب الكتابة استصعابه الكلام . فعند ما انحلت عقدة لسانه واستطاع الافصاح قليلاً ، كان يملي ما يخطر له من النظم والنثر فيُكتب له . وله في مرضه مقاطيع بديعة وقصائد رائعة مما لم ينشر في دواوينه المطبوعة مثل قوله :

اصبحت مثل الفيل حين سقطت لم ابرح مكاني ساقطاً لطويلِ
ابغي النهوض فلا اكون لعلتي بعد اجتهادي فيه غير كليلِ
واذا سألتم كيف أنت اجيبكم فاسركم ان قلت مثل الفيلِ

وقوله مشيراً الى مرضه في الحادي والعشرين يوماً منه :

قد قال في طيب عيش المرء شاعرنا «ما اطيب العيش لو ان الفتى حجرُ»
وها انا اليوم في مهد الضنا حجر ملقى فمن اين طيب العيش انتظرُ

وقوله ايضاً :

لو كان يمكن ان يعيش الناس في م الدنيا بفردِ يدٍ ورجلٍ يُختَتَل
لم يصنع الخلاّق زوجاً منهما ولقد توفّر عنده نصف العمل

وقوله من قصيدة :

يا طبيب الارواح والاجساد هل طبيب سواك عند العبادِ
طبُّ اهلِ الدنيا بشرب دواء او علاج كالفَصْدِ او كالضِمادِ
وتداوي بكلمةٍ منك تشفي وتعيد الصلاح بعد الفسادِ
انَّ هذي افعال بطش اله لا نبيٍّ كظنِّ اهل العِنادِ
ما سمعنا بمثله من نبيٍّ من جميع الآباء والاجدادِ
من رأى الشمس هان ان يعرف الشمس وانكارها عسير القيادِ

الى ان قال منها :

انت من انت ؟ قل لنا دون كتم انت من انت ؟ انت رب العبادِ
انت لا شك كلمة الله تشفي وتقيم الموتى من الالحادِ
انما الطب للمريض ومنك الا طب للميت والدوا إن تنادي

وقوله في مثل ذلك ايضاً :

يا مسيحاً وسيد المسحاء ورئيس الملوك والعظماء
زمرة الانبياء والرسل والاملاك طراً لديك مثل الهباء
كلمة الله انت تحيي من المو ت وتشفي المريض من كل داء
حرت ماذا اقول في حق شخص امره فاق حكمة الحكماء
هو في شخص آدميٍّ ولكن ليس في الاصل من بني حواء
قد تعودت امدح الناس لكن ينثني مدحهم له كالهجاء
هو من روح الله جاء فقلنا انه ابن له بدون افتراء
ولنا شاهد له حين نادى ذا هو ابني الحبيب صوت السماء

ولما مُني بفقد بكره الشيخ حبيب وهو في مرضه المزعج ندبه ندباً مؤثراً وتكلف نظم مرثية له يودّعه بها فلم يستطع ان ينظم منها اكثر من احد عشر بيتاً وجمدت قريحته حزناً ولم ينبس بعدها ببنت شفة لا ناظماً ولا ناثراً فكانت آخر ما نظمه ومطلعها :

ذهب الحبيب فيا حشاشة ذوبي اسفاً عليه ويا دموع اجيبي

فبقي نحو اربعين يوماً بعده والحزن أليفه فعاد اليه نزيفه الدماغي في ١٨ شباط سنة ١٨٧١ وتكرر حتى لفظ انفاسه . واقيم له مأتم كبير سار وراءه موكب عظيم لا يدرك الطرف آخره . وقد تناقلت الصحف فجيعته واكثر المؤبنون والراثون من الاسف عليه في الشرق والغرب ممن عرفوه . وكان نحو ثمانمئة تلميذ من مدارس بيروت وبيد كل منهم كتاب سائرين امام جثته احتراما لعلمه وفي مقدمتهم تلاميذ المدرسة البطريركية تنشد انشودة محزنة نظم سليم تقلا تلميذ الشيخ واحد اساتذتها . وقد دفن في مقبرة الزيتونة في بيروت حيث مدفن اسرته وهي الى الشرق الشمالي من ضريح اسرة آل الارقش الى جهة البحر واقيم عليها بناء مثلث نقش عليه ثلاثة تواريخ لا تزال فوق الضريح الرخامي الى يومنا . وهي للشيخ حبيب من جهة الشرق ، ولشقيقه الشيخ فارس من جهة الغرب ، وسياتي ذكر كلٍ في محله . واما تاريخ الشيخ ناصيف فمن جهة الجنوب نظمه ولده الشيخ ابرهيم وهو :

هذا مقام اليازجيّ فقف به وقل السلام عليك يا عَلَم الهدى
حرم تحج اليه ارباب الحجى أبداً وتدعو بالمراحم سرمدا
هو مغرب الشمس التي كم اطلعت في شرق آفاق البلاغة فرقدا
فخر النصارى صاحب الغرر التي ضربت على ذكر البديع واحمدا

هذا عماد العلم مال به القضا فامال ركناً للعلوم مشيَّدا
امسى تجاه البحر جانب تربةٍ هي « مجمع البحرين » اشرف مجتدى
فعليك يا ناصيف خير تحيةٍ طابت بذكرك حيث فاح مرددا
لو انصفتك النائبات لغيَّرت عاداتها ووَقتك حادثة الردى
تتنزَّل الاملاك حولك بالرضى ويجود فوقك باكراً قطرُ الندى
وجميل حظك في الاعالي رحمة أرّخ وذكرٌ في الصحائف خُلِدا

انشودة تقلا في مأتم اليازجي :

ناصيف ولَّى فانهدم ركن العلوم
فصح سكب الدمع دم عما ورد

دور

العلم نادى حرقتي ولَّى ابي
وقد توالت محنتي مع نصبي
كذاك ثُلّت رفعتي عن كثَبِ
فنابني اخذ الهموم بعد النكد

دور

مدارس العلم ارتدت ثوب الحداد
وذاك لما قد غدت بلا عماد
كذا المعاني قد بدت بلا رشاد
اذ مات من فيه يقوم كل الرشد

دور

الصرف امسى باكياً من قد بناه

والنحو اضحى راثياً حزناً اباه
والشعر ظل ناعياً اذ قال آه
مجدي مضى فلا اروم بعداً احد

دور

فن المعاني والبيان قد اندثر
كذا البديع قد ابان كل الكدر
والمنطق السامي استبان على غمر
والفضل من ريح السموم زان الكمد

دور

تبكي عليه الكتبُ والقلمُ
والصحف ثم الخطبُ والحكمُ
كذاك ترثي العربُ والعجمُ
وليس من مرء يلوم في ذا الصدد

دور

سطوت يا بين على قطب الزمن
لذاك اوليت البلى كل الوطن
صبراً على دهر جلا كاس الحزن
وفيه بتنا بغموم اذ لا تحد

دور

يا ايها القوم اعبدوا ذاك الامين
وبالتقى تزودوا في كل حين

ثم اعلموا واكدوا على يقين
بان لا شيء يدوم غير الصمد

رحمه الله وعزى الادب عن فقده .

ثالثاً — الشيخ حبيب البازجي

هو بكر الشيخ ناصيف الذي عُرف بادبه واخلاقه التي كانت مطبوعة في اسرته العلمية الشهيرة . ولد في كفرشيما في ١٥ شباط سنة ١٨٣٣ . ووالدته صابات الشامي الدمشقية من بيت الطويل . وتلقى العلوم على والده فنبغ بالعربية في جميع فروعها ونظم الشعر ولكن انصرافه الى التجارة شغله عن الاكثار من النظم واستماله الى اتقان اللغات الاوربية فاتقن الافرنسية على احد الاساتذة بآدابها تكلماً وتعريباً وانشاء حتى انه استطاع ان يعرب منها ما يريد قراءة بدون تروٍ او تريث كانه عربي اللفظ ، والمّ فوق ذلك بالايطالية والانكليزية والتركية والرومية الماماً وافياً بغرضه منها . ولم يتعلم في مدرسة بل درساً على بعض الاساتذة واجتهاداً لنفسه وكان ايضاً رياضياً ماهراً اتقن الحساب بفروعه والجبر وحساب مسك الدفاتر (الدوبيا) الذي كان نادراً في ذلك العهد وقلّ من عرفه فكيف بن اتقنه . وكان حبيب تاجراً ماهراً كريماً وهب هبات لمدرسة راهبات الناصرة في بيروت وله معهن قصة خطبة لابنة كانت تدرس عندهن ثم عاجله الموت قبل الزواج .

كان حبيب قد ابتنى بيتاً بديعاً له ولعائلته في زقاق البلاط في بيروت . وكان نافذ الكلمة في بيته غنياً كريماً اذا تحدث عن شيء لا يخالف فيه

وعوتب الشيخ حبيب على عدم تركه بيروت مع تفشي الهوآء الاصفر فيها سنة ١٨٦٥ وعلى عدم ذهابه الى القرى فقال : « الهوآء الاصفر ولا عشرة الفلاحين » لانه لم يعتد معاشرة غير الكبار في بيروت . وانتظم في سلك اعضاء الجمعية « المشرقية » التي انشأها الآباء اليسوعيون في بيروت سنة ١٨٥٠ لخدمة اللغة والآداب . وكان يكتب في مجلة « اعمال شركة مار منصور دي بول » الشهرية التي ظهرت في بيروت في اول حزيران سنة ١٨٦٧ . وكان ايضاً عضواً مع شقيقه الشيخ ابرهيم في الجمعية العلمية السورية . ولهما آثار اقلام في « مجموعة العلوم » وهي مجلتها الشهرية التي ظهرت في ١٥ ك ٢ سنة ١٨٦٨ وعطلت بعد سنتين . واصيب بداء السل الذي انتقلت عدواه الى بيتهم بواسطة زوج عمته راحيل واسمه رافائيل الدقي الحلبي الاصل من سكان زوق مكايل . وكانت وفاة الشيخ حبيب هذا في اثناء مرض والده بالسكتة الدماغية وذلك في ٣١ ك ١ سنة ١٨٧٠ عن ثمان وثلاثين سنة الا شهراً ونصفاً . فعجلت وفاته هذه على والده فمات على اثر ذلك . وكان مأتم الشيخ حبيب عظيماً لانه كان مشهوراً بآدابه ومحبوباً من الجميع فرثاه والده بالمرثية التي لم يستطيع اتمامها لشدة حزنه وتلعثم لسانه بهذه الفاجعة الاليمة . قال فيها :

ذهب الحبيب فيا حشاشة ذوبي أسفاً عليه ويا دموع اجيبي
ربيته للبين حتى جاءه في جنح ليل خاطفاً كالذيب
يا ايها الام الحزينة اجملي صبراً فان الصبر خير طبيب
لا تخلعي ثوب الحداد ولازمي ندباً عليه يليق بالمندوب
هذا هو الغصن الرطيب اصابه سهم القضاء فمات غير رطيب
من للكتابة والحسابة بعده ولصحة التدبير والتدريب

لا استحي ان قلت قل نظيره بين الرجال فلست غير مصيب
والمرء يطلق في الكلام لسانه ان كان لا يخشى من التكذيب
اني وقفت على جوانب قبره اسقي ثراه بدمعي المصبوب
ولقد كتبت له على صفحاته يا لوعتي من ذلك المكتوب
لك يا ضريح كرامة ومحبة عندي لانك قد حويت «حبيبي»

ورثاه بعض الادباء، منهم القانوني نقولا نقاش المشهور في قصيدة رثى فيها والده الشيخ ناصيف وذكر فيها ولده حبيباً . ودفن الشيخ حبيب في مقبرة الزيتونة في بيروت وهي مدفن اسرته ، ونقش على ضريحه هذه الابيات :

لآل اليازجيّ شجى ونوح على من كان كالغصن الرطيب
لقد فقدوا الحبيب واي نفس لعمرك لا تذوب على الحبيب
اقام بتربة فيها قلوب تسيل جراحها بدم صبيب
فقال مؤرخوه رواك فيها ايا غصن النقاء دم القلوب

صفاته واخلاقه : كان الشيخ حبيب معتدل القوام ، رقيق البدن ، اسمر اللون، حسن الهيئة، حاذق الفكر، سريع الفهم، قوي الذاكرة، شهماً، كريماً، وقوراً ، عاقلاً ، لبيباً ، فطناً ، متضلعاً من العلوم الادبية والتجارية واللغات التي اتقنها . الى ما يماثل هذا مما عرفه الذين جالسوه وعاشروه .

مؤلفاته : للشيخ حبيب شرح بديع على ارجوزة والده « الجامعة » في العروض والقوافي وقد مر ذكرها في ترجمة والده فسمى هذا الشرح « اللامعة في شرح الجامعة » وهو من مطولات الكتب في هذا الفن . قد استقصى فيه جميع شوارده ودقائقه وتبسط في ايضاح اصول الفن ونكاته فاجاد فيه غاية الاجادة بتفننات بديعة وشوارد شائقة منتخبة من كتب الادب والعروض، ودبجه

بامثلة كثيرة تدل على سعة اطلاعه وشدة حذقه . وقد طبع كتاب اللامعة بالمطبعة الوطنية في بيروت سنة ١٨٦٩ في ١٢٧ صفحة بقطع الثمن .

قصة « عادليدا برونزويك » عربها عن الافرنسية باقتراح صديقه الدكتور ابرهيم بك النجار من دير القمر (لبنان) رئيس اطباء بيروت . وهي مفرغة بقالب عربي جزل التراكيب رشيق الالفاظ بديع الاساليب ، الا انها لم تطبع .

قصة « تلماك » وهو تعريب كتاب تلماك لفنيلون الافرنسي اللغوي لم يكن تعريبها اقل اتقاناً وبلاغة من (عادليدا) . وهذه لم تطبع ايضاً .

شعره : كان الشيخ حبيب مثل بقية افراد البيت مطبوعاً على الشعر ، وقد تعلق على النظم في اول امره ومال الى قرضه وتعمق باصوله . ولم يتصل بنا من شعره النفيس الا ما ننشره هنا وهو مرثيته للطيب الذكر البطريرك مكسيموس مظلوم الحلبي الشهير المتوفى في الاسكندرية سنة ١٨٥٥ ، وهذه هي :

يسرُّ المرء اقبال الليالي ويذهل ان ذلك للزوالِ
ويحسب ان في الدنيا خلوداً ويجهل ان ذاك من المحالِ
غوى الصغراء والكبراء طراً ولم يخطر لهم موتٌ ببالِ
وكم من عبرة في كل يوم تمر وليس فيهم من يبالي
تُرى اين الذين تقدمونا ومن قد كان في الحقب الخوالي
رأينا الكل قد صاروا تراباً وقد اضحوا مواطىء للنعالِ
ومن كانت له الارواح عرشاً توسد حفرة في سوء حالِ
ومن كانت له الاكباد قوتاً غدا للدود قوتاً في الرمالِ
كذا الدنيا تزول ومن عليها «ويبقى وجه ربك ذو الجلال»
دع الدنيا الغرور وكن مجداً كحبر الشرق في طلب الكمال

هو المظلوم حين رمى بتاج ... له واعتاض اكفاناً بوالي
لقد ضُربت به الامثال لما ... غدا بين الرعاة بلا مثالِ
ترى يأتي الزمان ببطريك ... يضاهيهِ بفعل او مقالِ
فلو يفدى امرؤ يوماً بمالٍ ... فديناه بارواح ومالِ
لقد فاقت على الاقطار مصرُ ... غداة استودعت كنز النوالِ
وفي الاسكندرية دُكَّ طودٌ ... فلم تنفكَّ فاقدة الجبالِ
ثوى في تربها بدرٌ منيرٌ ... فقد حسدته افئدة الرجالِ
رئيس كان في دنياهُ بحراً ... فكانت تجتني منه اللآلي
لقد ارضى الاله بكل امرٍ ... وارضى الناس في حسن الفعالِ
فعاش كما نؤرخه سعيداً ... وفي الدارين قد بلغ المعالي

ومن شعره قوله يقرظ كتاب « روضة الادب في طبقات شعرآء العرب » لاسكندر ابكاريوس المطبوع سنة ١٨٥٨ ، وهو :

لله روضة اداب قد انتشرت ... في الافق ريح الشذا من عرفها انتشرا
اسكندر الجامع الآداب انشأها ... يوماً فكانت لاصداف النهى دررا
اهدى لنا نبذة عمت فوائدها ... مثل السحابة اذ تهدي لنا المطرا
دلَّت على فضل مهديها الكريم كما ... دلت على طبقات الشعر والشعرا

الى غير ذلك من الاشعار التي لم نقف عليها وربما كانت مدفونة في بعض خزائن الكتب .

رابعاً — الشيخ خليل اليازجي

هو ابن الشيخ ناصيف ولد في بيروت سنة ١٨٥٦ فترعرع في بيت علم كبير رأسه الشيخ ناصيف . واخوته الشيخان حبيب وابرهيم والسيدة وردة وكلهم شعراء وادباء ومؤلفون . فكانت ميولهم الى العلم طبيعية فيهم موروثة وكان بيتهم مجمع العلماء والادبآء يجالسونهم ويسامرونهم بزياراتهم لهم . فتلقى الشيخ خليل عن والده مبادىء العربية واعجب بذكائه وشاعريته فظهر نبوغه وادبه .

دخل مدرسة الاميركان في بيروت ودرس العلوم الطبيعية والرياضية وبرع فيها ونظم في مباديها اشعاراً تدل على تضلعه منها . وقد نزعت نفسه الى زيارة القطر المصري لرواج الادب فيه فسافر اليه سنة ١٨٨١ ونال منزلة سامية عند الكبار والعلماء والادبآء ولاسيما الامرآء والوزراء . وله في الخديوي توفيق باشا ورجاله والاعيان قصائد ومراسلات مع الاصدقآء . وهناك اخذ ينشىء مقالات مجلة « مرآة الشرق » التي اسسها سليم بك عنحوري الدمشقي بالقاهرة في اوائل سنة ١٨٧٩ ثم حول امتيازها بعد عودته الى دمشق الى امين بك ناصيف والشيخ خليل . فظهرت في ٦ نيسان سنة ١٨٨٢ . كتب فيها الشيخ خليل مقالات قيمة ، واذ عطلت على اثر الثورة العرابية هناك عاد الشيخ خليل الى بيروت . وسنه ١٨٨٣ اقترن بالسيدة فدوى كرمة جبرائيل الكاتب وابنة شقيقة المرحوم المطران يوسف الدوماني اسقف طرابلس الشام ، فارخ قرانه شقيقه المرحوم الشيخ ابرهيم بقوله :

لله يوم بالمسرة قد صفا فشفى من الاكباد كل غليل

في طالع لما بدا تاريخه بالخير طاب به قران خليل

وانتدب مدرساً في المدرسة البطريركية الكاثوليكية مدة ، تخرج عليه فيها كبار الادباء والكتاب والشعراء والصحافيين . ودرّس ايضاً في كلية الاميركان فخرج من بين حلقات الطلبة الدارسين عليه نوابغ مشهورون . وما زال يؤلف ويعلم الى سنة ١٨٨٦ فاصيب بعلة صدرية اشار عليه الاطباء ان يقصد القطر المصري لتخفيف وطأتها . فذهب ولبث مدة يكتب في صحفها ، وطبع في اثنائها ديوانه الشعري المعروف « بنسمات الاوراق » ثم اشتدت عليه العلة هناك فاشار عليه الاطباء ان يعود الى لبنان ، فقصد قصبة عبيه ولبث فيها شهراً . ثم انتقل الى حدث بيروت وبقي فيها الى ان توفاه خالقه في ٢٣ ك ٢ سنة ١٨٨٩ فنقلت جثته الى بيروت بمشهد حافل مشى فيه كبار القوم والعلماء والاعيان ورجال الحكومة الى كاتدرائية الروم الكاثوليك فابنه في الكنيسة المطران ملاتيوس فكاك . ودفن بمدفن اسرته في محلة الزيتونة . فوفته صحف لبنان وسوريا ومصر والعراق حقه من التأبين ، وتبارى الشعراء برثائه نثراً وشعراً . وجمع صديق بيتهم الدكتور بشاره زلزل اللبناني تلك المراثي في كتاب طبع في بيروت بالمطبعة الادبية سنة ١٨٨٩ في ٥٤ صفحة بقطع الربع .

اخلاقه وآدابه : كان الشيخ خليل مثل والديه واخوته واخواته ، وهو صغير بيتهم ، قد اقتبس افضل الاخلاق وعالج احسن الاداب مما كان يراه فيهم من التثقيف والتهذيب والذكاء وحسن المجالسة وطيب المسامرة ولطف الذوق . فنشأ ذكي الفؤاد ، سريع الخاطر ، جيد القريحة ، قوي الحافظة ، واسع الرواية ، كثير التفنن ، يرتجل الشعر زجلاً وفصيحاً كما تشهد له منظوماته . اما في اخلاقه

فكان مثل آله : شديد الاباء، حسن الطوية، سليم القلب، جليل القدر، مهذب السيرة، مما تدل عليه بعض اقواله وآرائه، منها :

كل شيء ينفد على الانفاق فاقتصد حتى في قوتك .

من جار على شبابه جارت عليه شيخوخته .

عجبت ممن لا يهتم الا بنفسه وممن يذهل عنها في اهتمامه بغيره .

اذا تكلم لسان حالك بأفصح من لسان مقالك فاسكت .

الجاهل ممقوت حتى من المنتفع منه .

كثرة المعاشرة تجلب المشاجرة .

من غلب طبعه على عقله غلبت شجاعته على عمومياته .

غلاء المضر خير من رخصه .

اللئيم لا تصاحبه ولا تعاده .

الاهمال والامهال آفة الاعمال .

شعره : كان الشعر طبيعياً في آل اليازجي فيقوله كل منهم وهو صغير السن . فقد نظم الشيخ خليل احسن المنظومات وارشقها، من قصائد ومقطوعات تواريخ شعرية في اللغة الفصحى، وازجالاً مختلفة في اغراض كثيرة وانحاء مختلفة .

فمن منظوماته الفصحى التي لم تدون في ديوانه « نسمات الاوراق » قوله يرثي جرجي بن يعقوب فياض المتوفى سنة ١٨٧٢ وكان الناظم في سن السادسة عشرة، فهو من اوائل نظمه :

في كل يومٍ للمنية مصرعُ وكأنما هي في السلامة تطمعُ

ما زالت الغفلات ملء عيوننا والموت عنا ساعة لا يهجعُ

قد غرّنا طيب الحياة وانما مثل السحابة عن قليل تقشعُ

الله اكبر كم يخادعنا بها سِحرٌ له في كل عين برقعُ
ولكَم يهيم بها الجهول مجاهداً ويجدُّ في خزن النضار ويجمعُ
فكأن مطمعه اعدَّ لنفسهِ زمناً سوى هذا به يتمتعُ
ويل ابن آدم من سهام منيةٍ في كل حين هولها يتوقعُ
ومن الحياة وتلك شرُّ حبيبةٍ باتت لعاشقها تغرُّ وتخدعُ
مات ابن فياض الكريم ولم يكن يخشى لتقواه المماتَ ويجزعُ
غصن لواه البين حتى اوشكت تُلوى لمصرعه الغصون اليُنَّعُ
فمضى وقد جفَّت مياه شبابه فسقته من سحب العيون الادمعُ
وعلت مناحات النوادب في الحمى لو كان ويحي للنوادب يسمعُ
ولقد عجبت لمن نعاه عشيةً ويلاه كيف حشاه لا تتقطعُ
ناعٍ نعى بدر التمام ففطرت للناس افئدة وذابت اضلعُ
يا آل فياض الكرام تقلدوا صبراً وبالاجر العظيم تمتعوا
لا تجعلوا فيض الدموع ينوب عن فيض التصبر فالتصبر أنفعُ
قد بات جرجس في السماء مكللاً ظفراً ونال سعادة لا تنزعُ
يا سائراً ترك المرابع راحلاً انراك يوماً المرابع ترجعُ
هيهات انك نلت في اوج العلى ما لا ينال فلا يروقك مربعُ
ما لم ترى عين ولم يخطر على قلب الانام ولم يحطه مسمعُ

وقال ايضاً، وهو مما لم يطبع في ديوانه:

طعنُ العدو يهيج عاطفة الرضى حتى من الاعداء اذ تترحمُ
والعكس إطراء الصديق فانه ليهيج سخط الصحب اذ تستعظمُ

ومن مراثيه قوله في وفاة صديقه المرحوم الخوري جرجس عيسى الزحلي وهو

من اساتذة المدرسة البطريركية في بيروت واول رئيس لها وقد توفي في بيروت سنة ١٨٧٥ بالهواء الاصفر .

ليومك في الورى ذكرٌ عظيمٌ كذكرك عند محتضر وبادي
وما يُغني اذكارك غير دمعٍ تشبُّ به الصبابة في الفؤادِ
ومثلك لا يفيه صوب عينٍ ولو جرت المدامع بالسوادِ
وما مثل المدامع من محبٍ لمن ابكى الاحبة والاعادي
ومن لم يشكه احدٌ بضرٍ ومن لم يشكُ ضراً في العبادِ
ومن كانت له التقوى شعاراً وسُهد الليل من اهنا الوسادِ
ومن كانت خلائقه عظاتٍ بها يأتمّ ارباب الرشادِ

ومن قصائده وهو في القاهرة يذكر لبنان ورياضه ، قوله في وصف الماء :

يجري على مثل الجمان وحوله مثل الزبرجد واللجين نقاءُ
متمعِجاً كالافعوان وانما من مائه يجد اللديغ شفاءُ
صافٍ فلولا صوته وخيال ما فيه تمثل لاختفى مرآهُ
والريح تمزح معه لاعبة به طرداً وعكساً حوله وإزاهُ

ومن اشعاره العلمية قوله من قصيدة :

الشهب تحت القبة الزرقاء مثل الحباب يعوم فوق الماء
مربوطة بالجاذبية مثله كترابُطِ الاجزاء بالاجزاء
والكون اجمع مثل جسم واحدٍ مفصولة اجزاؤه بخلاء
والجاذبية انما هي الفةٌ بين الجواهر عند الاستقصاء
فتبارك الخلاق بانيها على وهمي آساس واي بناء
ومنظم الاكوان في اسلاكها مثل العقود ترى لعين الرائي

والجاعل الطرفين ليس بداءةٌ لهما ولا حدٌّ كذاك نهائي

ومن مقطعاته الحكمية قوله :

مَثل الجاهل في اعجابه مثَل الواقف في رأس الجبلْ
ينظر الناس صغاراً وهو في اعين الناس صغيرٌ لم يزلْ

وقوله مقتبساً من الانجيل المقدس :

مثل العقل وما يجهله مثَل المغرى بشيء ضاع منهُ
ان يجده فهو مشغوفٌ به او توارى لا يزل يبحث عنه

وقوله :

لا بارك الله في سوء الظنون فكم فيها مظالم بين الناس تنساقُ
ساءت ظنونكم بي والظنون متى ساءت فحتى السلام المحض مصداقُ

وقوله :

الرجل الذي يكو ن للرجال مثلا
من كيفما قلبته اراك منه رجلا

وقوله :

وجماعة تلقاك باسمة وقلوبها سود واكبدها
كالبائع المطري بضاعته يثني عليها وهو يطردها

وقوله :

كل شيء بالطبع يسعى لدفع الضر عنه ان زاد ظلماً وجورا
وانظر المآء اذ تجور عليه حدة النار يطفىء النار فورا

ومن تواريخه قوله يؤرخ بناء كنيسة سيدة البشارة في طنطا سنة ١٨٨٢ :

بيتٌ على اسم البتول البكر شيَّده ذوو التقى وعظيم الفضل والجاهِ

فقل هي نعمةَ ارّخ لنا ابداً يا من قد امتلأتْ من نعمة اللهِ

وقال يؤرخ وفاة الطيب الذكر المطران اغابيوس الرياشي سنة ١٨٧٨ :

ولّى اغابيُسُ الذي آثاره تبقى بقا ذكرِ له متكررِ
راع بَكَتْه رعيةٌ قد ساسها زمناً بهمته التي لم تفترِ
نال المسرة في النعيم ومالنا من بعد ذا التاريخ غير تحسُّرِ

وقال يؤرخ ارتقاء الطيب الذكر المطران بولس مسديه الدمشقي الى اسقفية طرابلس الشام سنة ١٨٨٠ :

تاهت طرابلس عزاً بسيدها ذي الفضل بولس لما تاجها لبسا
هناك قد قام ارخ للعلى شرفاً به ترى بولساً اعلى طرابلسا

وقال يؤرخ انشاء جمعية علمية في بيروت وهو تاريخ هجري في الشطر الاول لسنة ١٢٩٤ ، ومسيحي في الشطر الثاني لسنة ١٨٧٨ :

بمذاكرات العلم احياءٌ له وقيامها يستلزم الجمعيه
وإذا الصلاح بها اتيح مؤرخاً جدت لذا الجمعية العلميه

ومن منظوماته التي تفنن بها قوله من قصيدة :

جعل اللسان على الفؤاد دليلا وكذا اليراع من اللسان بديلا
ولربما نطق اليراع بلحظة ما ليس ينطقه اللسان طويلا
ولرب ذي حَصَر بنطق لسانه احصى به المعقول والمنقولا
ولكم شفى قلم البليغ حزازة اعيا اللسان شفاؤها وغليلا
وتراه مضمار العقول فكم به سبقت عقول في الذكاء عقولا
وبه عرفنا الدين والدنيا معاً اذ نقرأ التوراة والانجيلا
وبه نرى متباعداً متقارباً فنرى لاقصاء البلاد سبيلا

ولكم به طعن العدو عدوه ولكم به نظر الخليل خليلا
ونزاه اصبح محور الدنيا فلم يبرح عزيزاً حيث كان جليلا

وقوله مما كتب على صورة من النوع الذي يضيء في الظلام :

رسم له الشرف العظيم لانه من نور وجهك مستمد نورا
فكأنه قمر وانت الشمس اذ يغدو امامك في الظلام منيرا

الى غير ذلك من اشعاره التي هي مشهورة في ديوانه النسمات .

ومن شعره الزجلي قوله من مطلع موشحة :

يا طير صوب بلادهم خدني معك جسمي اخف من النسيم شو بيمنعك
قلي بتمنعني دموعك في الهوى بلكي تبلل جانحي من مدمعك
قلي بتمنعني دموعك في الهوى من كتر ما بتبكي على مر النوى
يا طير نار القلب من فرط الجوى بتنشف التبليل ما بتلدّعك
بتنشف التبليل وهو يطفي اللهب منها وبالحالتين ما مني تعب
وان كان حملي ثقيل يقول يا للعجب لكن عيون العاشقو بتوقعك

ومن زجلية ثانية قوله .

يا اهل الهوى بالله مين عندو دوا يشفي جراح القلب من سهم النوى
سهم النوى وسهم اللواحظ صابني ما ليش عالسهمين يا ربي قوى

مؤلفاته : اشتغل الشيخ خليل بالادب وألف فيه ما طبع . وبقي له مؤلفات مخطوطة . فما طبع : « نسمات الاوراق » وهي ديوانه الشعري الرشيق جمع فيه ما نظمه من التهاني والمراثي والمدائح والحكم والآداب والموشحات والمراسلات وما يندمج في سلكها من فنون النظم البديعة ولاسيما في العلميات وفي اخره تقاريظ بعض الادباء . طبع اولا في مصر سنة ١٨٨٨ في ١٦٢ صفحة بقطع

الربع ثم جدد طبعه ثانية في مصر سنة ١٩٠٨ في ١٥٤ صفحة بحرف جلي صدر بمقدمة في ترجمة الناظم .

« رواية المروءة والوفاء » وهي تمثيلية شعرية تاريخية غنائية اتم نظمها سنة ١٨٧٦ ومثلت مراراً وكان لها الوقع الحسن لما تضمنته من حوادث الملك النعمان ابن المنذر ابن ماء السماء في يومي بؤسه ونعيمه . مثلت اول مرة في بيروت سنة ١٨٧٨ وطبعت في بيروت سنة ١٨٨٤ وهي في نحو ألف بيت صدرت بقصيدة طويلة في الروايات وادابها ومصطلحات تسمياتها مأخوذة من ليالي القمر وطبعت ثانية في مصر سنة ١٩٠٢ .

« تنقيح كتاب كليلة ودمنة » لعبدالله ابن المقفع وهو من اشهر الكتب في اساليب الانشاء . بحث الشيخ خليل عن نسخه المخطوطة والمطبوعة في مكاتب الشرق والغرب . وضبط الفاظه وفسر غريبه وشرح غامضه . فجاءت هذه النسخة من تحت يده بغاية الصحة وكمال الضبط . طبع اولاً في بيروت سنة ١٨٨٤ وكرر طبعه بعد ذلك .

مؤلفاته المخطوطة : « الصحيح بين العامي والفصيح » وقفت عليه بخط يده مع ولده الشيخ حبيب في حزيران سنه ١٩٣٦ لما جاء بيروت وهو في نحو خمسمائة صفحة بخطه . وطبع له مقدمة وانموذجاً في اربع صفحات على امل ان ينشره مطبوعاً ثم اعجله مرضه عن طبعه . وضعه سنة ١٨٨٥ وهو بعمر تسع وعشرين سنة .

« السلم الرفيعة الى علم الطبيعة » وهو كتاب في الفلسفة الطبيعية التي اتقنها . وضعه على اسلوب مفيد وتبويب سهل .

« قيد الاوابد » كتاب في اللغة وشواردها اشتمل على فوائد جمة وبحوث رائقة وتحقيقات شائقة .

« رواية السموأل » شعرية غير كاملة .

« الافشاء لسر الانشاء » او « الوسائل » وهو كتاب في علم الإنشاء بخط المؤلف يقع في تسمين صفحة بقطع ربع كبير له مقدمة في الداعي الى تأليفه للمدارس، والحاجة اليه، في ٢٦ موضوعاً تتناول اكثر الاغراض للتراسل . جمعت في اربعين رسالة بين خطاب وجواب مشفوعة باربعين رسالة اخرى بنفس مواضيعها . وضعها مخرجة ليكملها التلميذ من بدء او حشو او ختام لاحماً كلامه بها ليزيد ذلك في تمرين الطلبة وتخريجهم ومحاكاة كلامهم لكلام الكتاب بمزجه به للفائدة مع الاشارة الى اساليب القدماء ومصطلحاتهم مما هو جدير بالطبع للوقوف على كثير من الطرق الآذنة بالبلاغة .

الى غير ذلك مما كتبه في مقالاته المنثورة البليغة وقد طبعها في كثير من المجلات التي تولى تحريرها او كتب في غيرها بمواضيع مختلفة . وهكذا كانت مجالس الشيخ خليل حافلة بالادباء الذين مدحه بعضهم فيها مثل قول صديقه سليم بك عنحوري في مجلس ادب جرت فيه مناقشات ومحادثات اجاد الشيخ خليل بالقائها . فقال له العنحوري مرتجلاً :

راقب الله يا خليل القرافي قد سبانا والله سحر لسانكْ
ترسل الشعر كالسيول ارتجالاً اترى الدر لجة في جنانك



خامساً — الشيخ ابرهيم اليازجي

هو ابن العلامة الشيخ ناصيف اليازجي الشهير ولد في بيروت في ٢ اذار سنة ١٨٤٧ وترعرع فيها على حب العلم والبحث اقتداء بابيه . الذي خرّجه باصول اللغة وقواعدها ، ثم قرأ على نفسه واكتسب بقية العلوم واللغات بجده وذكائه . فما بلغ العشرين حتى طار صيته في بلاد الشام واشتهر نبوغه مجيداً المنظوم والمنثور بحيث اضحى حجة في علوم اللغة العربية وآدابها . وكان من صغره براً بابيه مما يدل على آداب بيته العلمي الكبير ، وكثيراً ما كان يحضر مجالس ابيه الحافلة بالعلماء والادباء . وكان اول اشتغاله بالصحافة تحرير جريدة « النجاح » سنة ١٨٧٢ . وكتب ايضا في جريدة « التقدم » فصولاً رائعة تدل على تضلعه من اللغة والعلوم . وقد تولى تدريس المعاني والبيان وآداب اللغة في المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك في بيروت . واشتغل بتصحيح المطبوعات في مطبعة الآباء اليسوعيين فاصلح كتباً كثيرة مما نشروه . وكانت له اليد الطولى في تصحيح ترجمة التوراة العربية حتى كانت ابلغها لغة وافصحها عبارة واجزلها اسلوباً ولاسيما في العهد القديم . ولكن الآباء اليسوعيين لم يطلقوا يده في تصحيح العهد الجديد كما كان يشاء . وقد ألمّ باللغتين السريانية والعبرية لتطبيق الترجمة ، واستعان بمن يعرف اليونانية تتمة لذلك . وكان في اول عهده بالكتابة ينزع الى اللغة الفصحى وسلاسة الاساليب حتى تفوق في ذلك كما سيأتي .

ولما كانت نفسه تنزع الى الصحافة اخذ مجلة « الطبيب » من الدكتور جورج بوست الجراح الاميركاني الشهير منشئها ، فنشرها سنة مع صديقيه المرحومين الدكتور بشارة زلزل والدكتور خليل سعادة اللبنانيين وذلك سنة ١٨٨٤ فنشر

الشيخ فيها مقالات لغوية وعلمية وادبية كان انشاؤها من الطبقة الاولى ولا سيما مقالاته بعنوان : « امالي لغوية » بيّن فيها آراء سديدة وتصرفات في اللغة لم يسبقه اليها غيره . وكان يشتغل باختصار كتب المرحوم والده في النحو والمعاني والبيان فاظهرها بمظهر جديد زادها فوائد جمة وتحقيقات ذات شأن . وهكذا كان ينشئ كثيراً من مؤلفاته ، مثل معجمه « الفرائد الحسان » و « نجعة الرائد » وغيرهما مما سيأتي وصفه . وقد حضرت مجالسه من سنة ١٨٩٠ لما كنت احرر جريدة « لبنان » في بعبدا ، الى سنة ١٨٩٣ ، فاهبط بيروت مراراً في الاسبوع زائراً مستفيداً من مباحثه مع نفر من تلامذته النجباء مثل خليل بك المطران والمرحومين نجيب الشوشاني ، ونجيب المشعلاني ، وخليل بك البدوي ، وسليم سركيس ، وغيرهم من كتبة الصحف والمنشئين فعرفت عنه اشياء كثيرة كانت تمر امامنا في مجالسه الحافلة بالادب وما يجري فيها من النوادر والنكات الادبية التي لا محل لتفصيلها الان . وكنت اراه يكتب في كتبه التي ألّفها وأطالع فيها مع زملائي المذكورين فنعجب من جلده وتنقيبه وتحقيقه في اللغة وفنونها . وقد رأيت عنده بعض رسوم بريشته لانه كان بارعاً في التصوير . ومنها صورته التي صور فيها نفسه على المرآة فكان الناظر اليها يدهش من اتقانها ولا يكاد يصدق ان صاحب الصورة هو المصور . ومن مميزاته نبوغه بعلم الفلك ورصد الاجرام السماوية . وله مباحثات شهيرة مع الفلكي الفرنسي المشهور فلاماريون حتى انتدبته الجمعية الفلكية في باريس وانفرس والجمعية الفلكية الجوية الملكية في السلفادور ان ينتظم في عضويتها . وطبع ما عرضه على الجمعية الفلكية في باريس في مجلة اعمالها وفي مجلة « الكوزمُس » المشهورة ، وذلك مما بعث به الى المسيو كاميل فلاماريون الفلكي سنة ١٨٩٣

وقد عربت جريدة « الاحوال » البيروتية مقالة « الكوزمس » في عددها الصادر في ١٩ كانون الاول سنة ١٨٩٣ بعنوان : « مأثرة علمية وطنية » .

قالت مجلة «الكوزمس» المذكورة ما تعريبه مما ذكرته جريدة الاحوال:

« ونزيد الآن انه بينما كانت المس كارك مهتمة بعرض هذه الطريقة كان عين ما خطر لها قد تمثل بفكر عالم عربي من ذوي الشهرة . وقد اثبت مـا بدا له من ذلك في فقرة من رسالة عرضها علينا حضرة الاب اغناطيوس الحمصي ، وهي هذه (واوردت المجلة صورة الفقرة المشار اليها مكتوبة باللغة الفرنسية) ونحن نعربها بالحرف . قال اليازجي :

« من المعلوم ان الشمس في اختراقها الفضاء تقطع بنا مسافة ٢٤٠ مليون كيلومتر في السنة وهي مسافة تبلغ ما يقرب من اربعة اخماس قطر فلك الارض . وبما ان الشمس مستمرة الاتجاه في خط واحد فان هذه المسافة تزداد في كل سنة ضعفاً بحيث يمكن على توالي السنين ان تمتد الى ما لا نهاية له. واذا كان ذلك أفلا يمكن ان يستخدم فلك الشمس عينه عوض قطر فلك الارض قاعدة لزوايا ابعاد النجوم ؟ فان لم يكن ثمة ما يعترض صحة هذا الرأي كان فيه ولا ريب اعظم فائدة لسبر مسافات ابعد الاجرام الغائصة في اعماق الفضاء. » (انتهى كلام اليازجي .)

فذيلت مجلة « الكوزمس » هذا الرأي بقولها :

« وليست هذه باول مرة اتفق فيها في المباحث العلمية ولا سيا الفلكية منها توارد عالمين على فكر واحد في آن واحد وان تباعدت مواطنهما بمسافات شاسعة .

ولا يخفى ما لمثل هذه الاتفاقات من جليل الوقع مما حدانا الى اثبات ما

ذكر فضلاً عما في اثباته من تعزيز هذا الرأي والزيادة في تقريره. » (انتهى كلام مجلة الكوزمُس) .

وذيلت جريدة « الاحوال » على هذه المقالة المطولة النفيسة بما عرضه اليازجي على فلاماريون في ٢٧ تموز سنة ١٨٩٣ فقالت :

« وهنا لا بأس ان نذكر للقراء ان هذه المسألة تعد من اعلى المسائل الفلكية واعظمها فائدة بالقياس الى ما يترتب عليها من النتائج المهمة في مباحث هذا العلم لان حل ما توصل اليه جهد العلماء الى هذا التاريخ في قياس أبعاد النجوم لم يتجاوز ثلاثين نجماً من اقربها مسافة الى العالم الشمسي . فاذا اعتمدوا هذه الطريقة امكنهم في عدة سنوات ان يسبروا ابعاد عدد كبير من النجوم التي هي ابعد من ذلك بمسافات . وعلى توالي الزمان يتهيأ لهم قياس مسافات اكثر الكواكب المنبثة في الفضاء .

جزى الله الفقيد عداد حسناته في سبيل العلم ، وعوض اللغة وطلابها خلفاً من بعده . والهم المتأدبين والكتاب العزاء على فقده انه السميع المجيب . » (انتهت مقالة الاحوال) .

ووضع الشيخ ابرهيم مسميات عربية فصيحة المستحدثات عند الافرنج مما نشر كثيراً منه في مجلاته .

وكان ينقر على العود متقناً للموسيقى . ورأيت العود عنده وقد كتب عليه بيتين من الشعر نظمهما وهما بخطه الفارسي المتقن :

وعودٍ صفا الندمان قدماً بظله ... وما برحت تصفو لديه المجالسُ

تعشقه طير الاراكة اخضراً ... وحنَّ اليه ريشه وهو يابسُ

صرف الشيخ حياته في بيروت بين المحابر والاقلام ، باخلاق دمثة وآداب رفيعة زاهداً بدنياه ، حسن المحاضرة والادب الرائع ، منقطعاً الى عمله ،

مبتعداً عن الظهور ، حتى انه كان يحمر خجلاً اذا قيل له انك عالم . وكان يأنف ان يخطو خطوة الى جر مغنم . فلما انعم عليه السلطان العثماني بالوسام المجيدي الثالث تحير وارتبك . ولما عقد مؤتمر العلوم والفنون بعناية الملك اوسكار الثاني ملك اسوج طلبت منه اللجنة مؤلفات والده ومؤلفاته فارسلها ونال عليها من الملك المذكور وسام العلوم والفنون، فهنأته، وانا في عهد الصبا، بقصيدة طويلة عنوانها: « المسرة » عددت فيها مؤلفاته ومؤلفات والده. منها:

هلا رشفت من المسرة جاما وعَلِلْتَ حتى تبرئ الاسقاما
يا من عرته من الخمائل نشوة تركته مشغول الفؤاد هياما

ومنها:

واذا رأيت العاملين تنازعا رفض الضعيف مع القويِّ قياما
حسبي بحب اخي المعارف نزعة فهو الذي يصفي الوداد ذماما
ويرصع الآذان من درر النهى من بحر علم غاص فيه غلاما
ما كل من خاض البحور بنائل دراً فان لنيله اقواما
ما بين تنقيح ومختصر له كتب بها رهط المعارف هاما
(بفرائد حسنا) و (نجمة رائد) عن(شعر احمد(*)) قد جلا الاوهاما
و(طبيبه) (لمطالع السعد) ارتقى حتى شفى اعرابه الاعجاما
يا من غدت اقلامه ببنانه عند احتدام لظى الوغى صمصاما
والكتب مثل كتائب من حوله والخط كالخطيِّ يفلق هاما
صرفتَ نحو كلامنا بعزيمة شماء غادرت الحسام كهاما

(*) يريد المتنبي لان شرحه له معظمه بقلمه ، ولكنه ، براً بوالده الذي بدأ به ولم يكمله ، ابقاه باسمه .

عن قوس نُجْح ترسل الآراء في كبد العلوم فلا تطيش سهاما

الى ان قلت :

حدث ولا حرج فابرهيم قد غنم التليد طريفه اقداما

فالليث يمهر بالشجاعة شبله واطالما يلد الهمام هماما

يا من دعته محبة الاوطان ان يسعى وراء العلم نلت مراما

لما بذلت السعي فيه ضحية نلت الفداء من المليك وساما

(اوسكارٌ) الثاني حباك وسامه فكذا يجازي المحسنون كراما

ولطالما قد نال ابرهيم من لدن الملوك مكانة ومقاما

فاهنأ به قد زان صدرك مثلما زينت في غرر الحجى الاقلاما

فاذا بمدحك فاض غيث مدادها كانت كمن يحبو البحور غماما

وقد نشرت في الجرائد وفي مجلة « المسرة » (٢٣ : ١٥) وهنأه كثيرون من الادباء بقصائد رنانة .

— ولما رأى الشيخ الآداب العربية والصحافة قد تحولتا الى مصر لحرية الاقلام فيهابرح مدينة بيروت سنة ١٧٩٣ وقصد بلاد الافرنج وزار مكاتبها الكبرى ونسخ منها ما استحسنه واعد بعض الآلات للطباعة ونحوها . وجاء مصر القاهرة فأنشأ مع زميله وتلميذه الدكتور بشارة زلزل مطبعة البيان ، فاصدرا فيها ، مجلة «البيان» سنة ١٨٩٧ سنة واحدة . ثم استقل الشيخ بانشاء مجلة «الضياء» سنة ١٨٩٨ فاصدر منها ثمانية مجلدات حافلة بالمقالات العلمية والادبية واللغوية فاشتهرت بحسن اسلوبها الانشائي ومتانته وفصاحة عباراتها . وعطلت عندما اصيب بمرض كان القاضي على حياته الطيبة . فتوفي في محلة المطرية بمصر في ٢٨ ك١ سنة ١٩٠٦ عن ستين من عمره عزيباً مثل اخوته الذين قضوا حياتهم عزباء .

وتوفوا. فلم يبقَ من هذا البيت العلمي الكبير الا الشيخ حبيب ابن اخيه الشيخ خليل . فكان لمأتمه في مصر رنة اسف اتصلت في بلاد الشام واوربا فابنته الجرائد وتليت المراثي على ضريحه وكان كبار الحكومة والادباء والوجهاء في جنازته. واقيمت حفلات كثيرة بعد ذلك في الشرق بل في ابعد القارات والامصار ورثته الصحف حتى ان سمو الامير عباس حلمي باشا خديوي مصر لما بلغه نعي الفقيد امر رئيس تشريفاته ان يكتب الى الشيخ حبيب كتاب تعزية هذا نصه :

« جناب الفاضل الشيخ حبيب اليازجي »

« لما علم جناب الخديوى العالي بعظيم رزء اللغة العربية وآدابها لانتقال العلامة الشيخ ابرهيم اليازجي من هذه الدار الفانية الى الدار الباقية اظهر مزيد اسفه على انقضاء تلك الحياة الطيبة الحافلة بجلائل الخدم للعلوم العربية في قطري مصر والشام ، وامرني سموه الفخيم ان ابلغ جنابكم وسائر اعضاء الاسرة اليازجية تعزيته السامية. واني اشترك مع قراء العربية في تقديم واجب التعزية الى حضراتكم . »

الامضاء

« سر تشريفاتي الخديوي »

« احمد زكي »

وكان الفقيد ، رحمه الله ، قد نال الوسام العثماني من جلالة السلطان ، ونوط (مدالية) العلوم والفنون من جلالة ملك اسوج ونروج .

ومما يذكر من اعماله الخطيرة انه اتقن صناعة حفر الحروف العربية بشكلها الجميل الذي طبعت به بعض كتب في بيروت وفي مجلتيه « البيان » و« الضياء » لانه كان قد اتقن فن الصياغة على شقيقه المرحوم الشيخ نصار اليازجي

النابغة في النقش والتمويه الكهربائي المعروف بالطلي . فنقش الشيخ ابرهيم امهات الحروف المذكورة ونبغ في فن الطباعة بوضعه انواع الحروف البديعة منها الحرف الذي اخترعه على اسلوب الحروف الافرنجية، اي انه قلل اشكال الحروف تسهيلاً على راصفيها فصارت ستين أمًا عوضاً عن ثلاثئة وطبع فيها حواشي جزء من كتابه «نجعة الرائد» في المطبعة الادبية لخليل سركيس. ولما احترقت مطبعته هذه فقد الكتاب فيها ولم يبقَ الا نسخ قليلة كانت شروحها بهذا الحرف الجديد. ومن اختراعه اول (روزنامة) عربية بارقام، اتمها على اجمل ما يكون . وكان جميل الخط على القاعدة الفارسية .

نثره :

كان الفقيد جيد القريحة بالانشاء المرسل مع سلامة ذوقه في انتقاء الالفاظ حتى كان اسلوب عبارته الذي جمع بين المتانة والبلاغة والسهولة اشبه باسلوب عبدالله ابن المقفع في كتاب «كليلة ودمنة» وكان يكره في كتابته اللفظ الغريب والتركيب الحوشي حتى اذا اضطر الى استعماله جعله مألوفاً لا يمجه السمع ولا ينكره الفهم، بل كأنه سلاسل الذهب . ومعظمه من السهل الممتنع . وكان كثير الرغبة في الاتقان، متأنياً في نثر ما يكتبه، كثير التنقيح والتهذيب قبل كتابته، ولهذا كان لا يظهر كتابته الا بعد ان يتمكن من جمالها وحسن اسلوبها . وكان شديد الوطأة في انتقاد ما يعرض له من الغلط اللغوي في ما يطالعه من الصحف او الكتب، فلذلك نشر كثيراً من المقالات في «اغلاط المولدين» ولم يستثنِ والده ولا نفسه . وكان يحتقر ما يرى فيه غلطاً لغوياً او نحوياً . ومن عرف دفاعه عن والده لما انتقده بعض الكتاب ادرك سبب تأنيه وعدم اخراج ما يكتبه الا بعد المراجعة

والتدقيق ، واذا سجع فلا تجد في كلامه تكلفاً بل سلاسة قل من يجاريه فيها ، ولهذا كان هو اكبر الكتاب الذين نشروا رسالاتهم ومقالاتهم بكل دقة وضبط . وهكذا كان في كتاباته امير النثر وسيد الفصاحة والبلاغة . وله رسائل بليغة نشر معظمها في ديوانه « العِقد » المطبوع في البرازيل بخطه الفارسي الجميل وفيه اشعاره ايضاً بذلك الخط . فمن امثلة رسائله ما كتبه في رقعة الى بعض اصحابه المسافرين :

« وردت تذكرتك اللطيفة تتلو علي من نبإ بلوغك بالسلامة الى ذلك الثغر المحسود بلقياك ، المسعود بيمن محياك ، ما سرَّى عن الخاطر الكمد لبعادك ، الشيق لمعادك . والله يعلم ما ابقى فراقك عندنا من وجد لا يهدأ ثائره ، وذكر موصول باوله آخره . نذكرك في كل مجلس طرب ، ونثني عليك في كل محفل ادب . والاماني مطوية على توقع أنبائك ، متشوقة الى ما نعللها به من طيب لقائك . قريباً ان شاء الله . »

وكتب الى صديق له يعزيه بفقد عزيز :

« كيف يعزي المصاب من لم يدع الدهر له فؤاداً يتجلد في وجه الشجون ، ولا ترك له توالي الارزاء دمعاً يسعد به عبرة المحزون . بل مثلي من خطب في المصيبة لسان حاله ، وان اخرست الخطوب لسان مقاله . وبكى فؤاده بدمائه ، وان لم يبك طرفه بمائه . ولعل الاسوة في بعض الامر انفع من العزاء ، وانجع من المساعدة بالبكاء . كتب الله لكم ولنا عزاء جميلا ، واجراً على الصبر جزيلا . وعزى بطول بقائكم الاولياء والاحباء ، واجمل مقر من فقدتم في دار البقاء . بمنه عزَّ وجلَّ ورحمته . »

وكتب الى صديق له جواب عتاب :

«وردني كتابك اللطيف ينهي اليَّ دقيق عتبك. وفيه من حدة لفظك، وخفة ظرفك، ما خشيت ان يشتعل به لدي، او يطير من بين يدي. وما انكر عليك هذا الادلال في عتبي، بعد ما علمت من محلك في قلبي. ولكن لو تثبتَّ فني العجل مندمة، وبعض اللوم مظلمة. والسلام ختام.»

وله في رقعة:

«قد طال هجرانكم لهذا الرفيق. فان كان ذلك من باب مقابلة المثل فنهاية التنازل. وان كان مجرد جفاء لتعذيبي فقد بلغ الامر حده. وشفيعي ما تعودت من حلمكم. والسلام.»

ومن مطالع كتبه قوله مما لم ينشر في «العقد»:

«المكاتبة، ايدك الله، على بعد المزار بمنزلة التزوار مع قرب الدار. والزيارة اذا تجاوزت مسافة الاغباب آذنت بالنسيان. والرسائل اذا تعدت شقة الابطاء انذرت بالسلوان. معاذ الله ان اعتقد ذلك فيك. ولكني حملت من الشوق ما ناء بي حمله.»

ومما كتب الى سلطان زنجبار يشكره على امداد ارسل به اليه اعانة لطبع كتابه «نجعة الرائد» وهو مما ليس في «العقد»:

«الى معالي مولاي الملك الجليل السيد علي ابن حمود سلطان زنجبار المعظم.»

«المعروض انه بعون الله عز وجل وامداد مولاي السلطان المعظم قد تم طبع الجزء الاول من كتاب «نجعة الرائد» الذي تفضلت مكارم جلالته علي وعلى سائر طلاب اللغة بالاعانة على طبعه ونشره. واني رافع الى سدته المنيفة نسخة من الجزء الذي طبع منه، راجياً من تمام نعمته ان يشرفها بالقبول وافساح محل لها في خزانة كتبه السنية، حتى تكون عنوان شكر دائم لمنته

وتطوله . والله اسأل ان يديم جلالته نجعة لرائدي كرمه وشرعة لواردي نعمه . بفضل الله عز وجل واحسانه . »

«من عبد جلالته»
«ابرهيم اليازجي»

«القاهرة في ٢٥ صفر سنة ١٣٢٣ »

وكتب الي من القاهرة في ٢٥ ايلول سنة ١٩٠٠ ما نصه :

« حضرة الاخ الحبيب المحترم »

« بعد السلام ، ابدي ان قد وصلني عزيز كتابكم وما يصحبه من الموشح اللطيف الذي سأنشره في الجزء التالي من « الضياء » . اما ما استفهمتم عنه من تاريخ العم المرحوم راجي ، فاني لا اعلم منه شيئاً . لاني لم ادرك الا آخر ايامه . ومع ذلك فاظن ان مولده كان بين سنة ١٨٠٢ وسنة ١٨٠٤ ، ووفاته كانت فيما اظن سنة ١٨٥٧ . واما تاريخ بقية الاسرة فغامض لما تعلمون من حال تلك الايام ، ولعل الغالب ان الذين في نواحي لبنان منها خرجوا من حمص او من حماة اواسط القرن الماضي ، وخروجهم ولا شك كان عن حيف لحقهم في تلك الديار على ما هو معلوم من الضغط الذي كان فيه نصارى ذلك العهد . واما لقب اليازجي فهو من القاب حكومة الاتراك ، فالظاهر ان احد السلف كان كاتباً عند بعض الولاة فلزمه هذا اللقب ثم انتقل الى خلفه . على ان كل ما ذكرته لكم مجرد حدس لست من شيء منه على يقين . فان احببتم الالماع الى شيء منه والا فانتم وما ترون .

اما بنو اليازجي الذين في عكار ونواحيها فالذي سمعته مرة من المرحوم الوالد انهم منا ، والظاهر ان هذا غير بعيد عن الصحة لان الاصل من هناك . واما علاقتنا مع بني نفاع فاظنها من قبيل المصاهرة . واما وفاة المرحوم جدي

عبدالله فكانت سنة ١٨٣٦ وله من العمر ٦٥ سنة .

وهنا اكرر شكري لما تبذلون من العنـاية في امر هذه الاسرة مع الاسف على اني لم استطع ان اكشف لكم عن حقيقة كل ما تودون اثباته . وعلى كل حال فلحضرتكم الفضل والجميل . والله اسأل ان يجزيكم عني وعن اولئك الدارجين خيراً واطال الله بقاءكم . »

« اخوكم ابرهيم اليازجي »

وكنت قد عرضت عليه بعض ما وجدته لوالده العلامة من القصـائد والتواريخ الشعرية التي لم ارها في دواوينه الثلاثة فكتب الي من رسالة طويلة قوله فيها :

« غير اني لا بد ان استأذنكم ، عند نشر مقالة التاريخ ، في حذف ما رويتموه للمرحوم الوالد من التواريخ التي لم يثبتها في ديوانه ، لانها لو اعجبته لم يهملها . ولو كان الراوي لديوانه غيره لاحتمل ان يظن ان اهمل شيئاً انه لم يقف عليه ، ولكنه رحمه الله اهمل كثيراً من شعره الذي نظمه في زمن الحداثة ، ولم يطبع من كل شعره الا ما اختاره ، فليس لنا الا ان نقف عند اختياره . . . »

ومنها :

«طلبتم ما لي من الشعر العصري وهو اقل من القليل لاني قد تركت الشعر من زمن طويل فلا انظم الا عن ضرورة ماسة . واما قصيدة الزهرة فلا تصلح لان تنشر بجملتها لما اظنه لا يعدو فطنتكم فلا بأس ان احببتم ان تكتفوا منها بالمنشور بالضياء . . . » « اخوكم »

« القاهرة في ١٨ شباط سنة ١٩٠٣ » « ابرهيم اليازجي»

وكتب الي قبل وفاته بقليل وهي من آخر رسائله الي وقد جمعتها بمجلد مع

رسائل العلماء، وهي اكثر من عشرين رسالة بخطه قال :

« القاهرة في ٨ نوفمبر سنة ١٩٠٦ »

« حضرة الاخ الاستاذ الفاضل المحترم »

« بعد السلام اشكر غيرتكم وحفاوتكم لتكرمكم بالسؤال عن هذا المخلص وما آل اليه امر صحته ، اما انا فاني لا ازال كما كنت عليه قبلاً ، وقد اتى علي الى الآن نحو شهر من الزمان لم ابرح الفراش ولم اكد اجد تحسيناً الا ما لا يذكر ، والظاهر ان هذه العلة (اي علة داء المفاصل) لا دواء لها في كتب اطبائنا . ولكن كل طبهم فيها تعليل ، الى ان يأذن الله في زوال العلة من نفسها . جعل الله موعد فراقها قريباً . هذا الآن ، واكرر سلامي لحضرتكم سائلاً الله ان لا يسمعني عنكم ولا عن احد ممن يلوذ بكم سوءاً ، بفضله تعالى وكرمه . »

« اخوكم »

« ابرهيم اليازجي »

فكانت هذه الرسالة آخر ما دار بيني وبينه ولم يطل العهد على وصولها حتى نعي الي رحمه الله فاكبرت الفاجعة به ورثيته بقصائد وارخت وفاته .

ومن نثره البليغ مقالاته الرائعة في الجرائد والمجلات ، فمن اراد ان يقف على تلك الموضوعات المفيدة فليراجعها في مجلاتها .

شعره :

نظم الشيخ ابرهيم الشعر الرقيق المنسجم في شبابه ولكنه اقل منه في كهولته وكانت طبقة شعره عالية حتى جرى كثير من منظوماته على السنة القوم مجرى الامثال . وكان يضن بنشره فبقي ديوانه غير مطبوع الى ان نشره الشيخ حبيب ابن شقيقه الشيخ خليل وحيد الاسرة اليازجية . فلما ذهب الى

اوربا سنة ١٩١٤ ونشبت الحرب الكبرى اغتنم فرصة وجوده في باريس فاخذ ديوان عمه بالفوتوغراف بخطه الفارسي الجميل وحفره على الزنك ليطبعه، ولما سافر الى البرازيل طبعه واضاف اليه ما كان منشوراً او مخطوطاً في اوراق منثورة كما سيأتي . على ان الشيخ ابرهيم تفرد بشعره كما تفرد بنثره فكانت قصائده فرائد قلائد في جيد المنظومات . ومن اقدمها ما نظمه لحادثة جرت مع منتقدي والده الشيخ ناصيف فكان رده على ما نشروه من النقد الموجع الشديد الطعن يدل على اخلاقه وآدابه مما اشتهر به بيتهم . فقال مما يستحق ان يكتب بماء الذهب رداً على ذلك المعترض :

ليس الوقيعة من شأني فان عرضت   اعرضت عنها بوجه بالحياء ندي
اني اضنّ بعرضي ان يُلمّ به   غيري فهل اتولى خرقه بيدي

وله قصائد في الجمعية العلمية السورية ، منها قصيدته سنة ١٨٦٨ قال فيها يصف مجالس العلم وقد نشرتها بمجلتي « الآثار » (٥ : ٣٥٣)

مجالس للعلوم غدت مناراً   به لغياهب الجهل انصرامُ
جلاها كل ابلج اريحيّ   تقر له البلاغة والكلامُ
رجالٌ في انتشار الفضل جَدُّوا   وفي حب العلوم صَبَوا وهاموا
تلاعبت الحمية في نهاهم   كما لعبت بشاربها المدامُ
جهابذة يقوم الفرد منهم   بما اعيا به الجيش اللُّهامُ

وقال عندما طلب منه مدح خريستوفورس كولمبوس مكتشف اميركا، لما مرّ على اكتشافه اربعمئة سنة ، واقيمت له حفلة ، وجمع له كتاب في اقوال العلماء والشعراء والادباء ، طبع بلغات كثيرة وكانت ابيات اليازجي منقوشة في الكتاب بخطه الفارسي . قال فيها :

ابقى خريستوفو الشهير لنفسه ذكراً على الايام ليس يبيدُ
رجل لقد فتح البلاد بصبره وله من الهمم الجسام جنودُ
قد زاد هذي الارض ارضاً مثلها ليديه القي كنزها المرصودُ
برزت اليه من الغيوب كأنها خلق سوى الخلق القديم جديدُ
فكأنه اذ حل فيها آدمٌ وكأنها فردوسه المعهودُ

وقال يصف قلعة بعلبك ونقشه بخطه على احد جدرانها :

يا بعلبكُ غريبةَ الازمانِ والعهد والصناع والبنيانِ
لم تبلكِ الايام في حدثانها الا لتظهر قدرة الرحمانِ

وقال في ساعة دقاقة :

ومحصيةٍ اعمارنا كلما انقضت لنا ساعة دقت لها جرس الحزنِ
فيا بنت هذا الدهر سرت مسيره فهل انت دون الناس منه على امنِ

وله منظومات كثيرة وقصائد شائقة نقتطف بعضها مما ينفسح له المقام . منها ما نظمه في المطران ملاتيوس فكاك حين تولى النيابة الاسقفية في بيروت . من قصيدة :

حبر له التقوى شعار لازم والبر ثوب والعفاف ازارُ
يقظ تراعي الله منه مقلة سهرت واخرى في الامور تدارُ
حظ به بيروت راق صفاؤها وتزحزحت عن افقها الاكدارُ

وقال وقد سئل ابياتاً ترفعها المدرسة البطريركية في بيروت الى البطريرك غريغوريوس يوسف في عيد الفصح . من قصيدة :

اليك نهدي التهاني فيه خالصة يا من به كل يوم عندنا عيدُ
انت الذي قام فينا بعد صاحبه يسمو به لمباني الدين تشييدُ

عليك من نوره تاج وقد رفعت اليك من يده العليا تقاليدُ
رعى رعيته في الارض محترساً من ان يُلمَّ بها في القفر تبديدُ
سارت بهديك لا تخشى بصائرها تيهاً اذا اتسمت في وجهها البيدُ
اوردتها الخير في الدارين حيث غدت وحظها بك في الحالين مسعودُ

وقال يمدح جلالة اوسكار الثاني ملك اسوج ونروج ويذكر قدوم احد انجاله الى المشرق سنة ١٨٩٠ ويشير الى نوط العلوم والفنون الذي اهداه اليه. من قصيدة :

ملك احلته اسوج وذكره يطوي من الآفاق كل بعيد
ضمَّ الصفائح والصحائف في يد ضمَّت من الاخطار كل مجيدِ
فاصاب في الاملاك اشهر موضع وغدا لاهل العلم خير عميد

الى ان قال يذكر المؤتمر العربي الذي اقامه الملك للعلوم والفنون في بلاده :

ولقد سَنَنْتَ لكل فضل منهجاً بك اهله تأتمُّ هَدْيَ رشيدِ
ورفعت بند العلم فاحتشدت له م العلماء تحت لوائك المعقودِ
نزلوا على كنفٍ كريم عنده نعموا بظل من نداك مديدِ
وانلتهم شرفاً به حمدوا الذي أَلِفوهُ من نَصَب ومن تسهيدِ
وتعرَّفتْ فيك العلوم بانها فخر لكل مُسوَّدٍ ومسودِ

ثم قال مشيراً الى ما حباه به من نوط العلوم والفنون :

ولقد كساني حسنُ رأيك حلةً غضَّتْ محاسنها عيون حسودي
قلَّدتني فخراً غدا ليَ حجةً فتناولوا البرهان من تقليدي
رسمٌ رأيت به جلالك ماثلاً فنكصْتُ بين مهابة وسجودِ
شرف لصدري وهو ارفع منزلاً من ان يحل بلَبَّةٍ او جيدِ

فلك الثناء عليَّ مدحة منعم ما إن يُقابَلُ فضله بجحودِ
قصرت في مدحيك حتى تاح لي قدر الوفا فنشطت بعد قعودي

ثم تخلص الى مدح ولده الزائر للبلاد فقال :

ورأيت وجهك في اجل مصوّر رَسمَتك فيه حكمة المعبودِ
فرع لدوحتك الشريفة قد أتى من عزك المرفوع تحت بنودِ
ريّان تقدمه السعود اذا مشى ويُحَفُّ من ملإ السما بجنودِ
شَخَصَت لموكبه العيون فابصرت بدراً تألق في غمام وفودِ
ولقد اقول لثغر بيروت أبتسمْ بلقاء ابناء الملوك الصيدِ
وافاك من طربت لمقدمه ربى لبنان فاتشحت ببيض برودِ
هذا ابن اوسكار العظيم قد انجلت بالسعد غرة نجمه المرصودِ
نعشت بشائره المنى فتهللت قبل اللقاء بوفده الموعودِ
وافى فحياه سهيل ورفرف م النسر المجيد مصفقاً في العودِ
هو صفوة الشرف العريق مسلسلاً من عهد آباء له وجدود

وله قصيدة في وصف الزهرة لم ينشرها كلها في مجلة « الضياء » كما كتب الي لما طلبت منه ان يرسل الي باقيها فاعتذر . قال منها :

يسارق الطرف عين الشمس منظرها فالشمس من دونها حلت بمرصادِ
حتى اذا هجمت في ليلها ظفرت منها العيون بلمح الميسم البادي
فنبئينا رعاك الله جارتنا بل انت سوغ لنا من عهد ميلادِ
قد انقطعنا فما ان بيننا صلة ولا سبيل لملّاح ولا حادي
ولم يكن بيننا سدٌّ وقد ضربت ايدي الفضا دون لقيانا باسدادِ
ما ان ينالكمُ للبرق منطلق ولا يقرب منكم سير منطادِ

وانما رسلنا الانوار حاكية نار الصليب تبدَّت فوق انجادِ
تهدي لنا عنكمُ رمزاً تعود لكم بمثله بين اصدار وايرادِ

وقال من مرثية في البطريرك بطرس الرابع الجريجيري سنة ١٩٠٢ :

يولد المرء للحياة اضطراراً واضطراراً يذوق كاس الحمامِ
ويح ناعيك وهو اهول نعي كيف اجرى لسانه بالضرام
نبأ برقع الضحى بظلام ونفى في الظلام طيب المنامِ
لم يكُ الشرق فيه ادرى من الغر ب بزلزال رجفة واهتزامِ
لا ولا مصر والعراق بادنى لوعة من صدور اهل الشآمِ
مأتم باتت الفضائل فيه باكيات بادمع الايتامِ
ونواح بين المنابر والحشد م وبين الطروس والاقلامِ

وله قصيدة تاريخية في مدح السلطان عبد العزيز ، ضمّن كل بيت منها تاريخين هجريين لسنة ١٢٨٤ . وافتتح صدور ابياتها بحروف اذا جمعت على الترتيب خرج منها بيتان يتضمن كل واحد منهما اربعة تواريخ للسنة المذكورة. فالبيتان هما :

يا مالكاً ظافر الانصار ضاء على ارض ربيعاً بهياً وَرْدُه نَضِرا
اضحيت لله ظلًا منه بادرنا راعٍ وحفظٌ وجودٌ وبله غمرا

ومن القصيدة قوله :

المالك الامر في الدنيا فما انقلبت الا على ما اشتهى من قصده فيها
راقي سماء عُلىً جازت معارجها م الاكفاء وامتنعت عمن يحاكيها
ابهى الملوك وإنْ جلّت مراتبها وخير من حاز عن طوع معاليها
عبد العزيز من اجتاز الهدى وعنت لبأسه الارض دانيها ونائيها

ومن قصائده المؤثرة ما نظمه في وصف عباس حلمي باشا عزيز مصر لما دخلها سنة ١٨٩٦ واقام فيها . فهو يذكر وطنه واهله وبقية انسبائه . قال منها :

زمان الحمى هل من معاد فنطمعا ... وغسك اكباداً تذوب واضلعا
ويا منزل الاحباب هل فيك وقفة ... تجدد تذكاري وان كان موجعا
ويانسمات المنحنى كيف اهله ... وهل طاب بعدي ذلك الحي مرتعا
قضى الدهر فينا بالفراق وطالما ... عهدناه قدماً بالجماعات مولعا
نبيت ونغدو والليالي برصد ... تراقب منا كل شمل تجمعا
ولو لم تروعنا بتصديع الفة ... كفانا ارتياعاً خوفُ ان نتصدعا
ويا رُبَّ يوم قد اطال تلهفي ... فلم يُرِني الا حبيباً مودعا [١]
فمن عبرة سالت بنحري وزفرة ... بها رحت من بعد الوداع مشيعا
وباكية [٢] لما اظل فراقنا ... وما اوشكت ترجو لوصليَ مرجعا
تكفكف دوني عبرة بعد عبرة ... على صفح خد بات بالدمع اسفعا
اقلي فقد اشجيت بالنوح اضلعي ... وغادرت قلبي بالشجون مروعا
وكفي أليم اللحظ عن قلب مدنف ... رمته النوى من قبل سهميك اربعا [٣]
فما باختياري كان ذا البعد بيننا ... ولكنه شأن ابى ان يضيعا

ثم انتقل الى ما لاقاه في وطنه لبنان مما حمله على مهاجرته فقال :

---

(١) يريد به الشيخ حبيب ابن شقيقه الشيخ خليل الذي كان يربيه .

(٢) يريد بها شقيقته آسين ارملة الدكتور خليل البربارى التي عادت الى بيته بعد ترملها وكانت ربة بيته، ومعها ولدها فريد، فرباه خاله . فاشار الى ذلك بهذه الابيات .

(٣) يريد بذلك المصائب التي حلت بيته بفقد اخوته من ذكور واناث .

ذريني فهذا الشوق يتلف مهجتي فاني رايت الخسف اعظم مصرعا
ابى الله ان ارضى المقام ببلدة ارى الفضل فيها بالخمول ملفعا
فما وطني ارض نبت بفضائلي ولو كان فيها العيش اخضر ممرعا
ولا اصطفي من كان فضلي عدوه ولو جاد لي من بعدُ بالود اجمعا
معاهد فيها يبعز اللؤم صفحه وتنكر وجه الحر الا مقنعا
اناخ بها ركب الغواية عائثاً وجاس حماها مربعاً ثم مربعا
ومد اتيَّ الجهل بالجور فوقها الى ان غدا حوض الخبائث مترعا
فيا لك شراً اي امٍ تمخضت به وغذته الشؤم حتى ترعرعا
ويا لك اياماً ارتنا صروفها عجائب لم يطرقن في الحلم مضجعا
ولم يبقَ الا ان نرى الشمس اشرقت من الغرب حتى تجعل الغرب مطلعا

ثم تخلص الى مدح الخديوي بقوله :

فيا دهر جدٌّ ذاك ام انت هازل وكيف بمن لم يدرِ للهزل مترعا
تدرعت فيك الصبر حتى اذا عفا تخذت حمى العباس حصنا ومفزعا
مليك غدا قطب المكارم والندى وبات حماه للرغائب مجمعا
سلالة بيت المجد والعز والعلى وصفوة من في دستهم قد تربعا
همام تولى الامر وهو على شفاً فشيد من اركانه ما تضعضعا
وناهض جيش الحادثات بهمة قد اتخذت افق السماكين موضعا
يقود لما جيشاً من الرأي غازياً يلي خُلقاً رحباً وقلباً مشيعا

ومن اشعاره الدالة على اخلاقه قوله في وفاء الوعد :

وعدت وكان وعد الحر دَيْناً ومن لي ان يكون وفاه دِينا
فدونك ما ترى فيه فاني رضيتك في الهوى عني امينا

وقال مما كتبه على رسم له اهداه :

اليك على البعاد مثال حب اكلفه التحية والسؤالا
لئن لم تلقَ منه سوى خيال فاني صرت بعدكمُ خيالا

وقال لامر :

ان يجحد الحساد فضلي فما يخفيه بين الناس ان يجحدوه
بل هم به ادرى الورى انهم لو جهلوا فضليَ لم يحسدوه

وقال :

تعجب قوم من تأخر حالنا ولا عجب في حالنا ان تأخرا
فمذ اصبحت اذنابنا وهي ارؤس غدونا بحكم الطبع نمشي الى ورا

وله تواريخ شعرية بديعة على خطة تواريخ والده . منها تاريخ لبناء كنيسة في صور سنة ١٨٧٤ :

هذا مقام القدس شاد بناءه اثناسيوس راعي الخراف الاروعُ
بيت به توما الرسول قد انجلت انوار قدس من سناه تسطعُ
تشدو الملائك في ذراه وبابهُ باب السماء لكل من يستشفعُ
قامت عباد الله خاشعة به واليه بالتاريخ جاءت تضرعُ

وارخ بناء مدرسة انشأها البطريرك غريغوريوس يوسف بدمشق سنة ١٨٧٥ :

غريغوريوس ذو المجد بطركنا ابتنى مقاماً به للعلم لاحت منائرُ
فكان سماء للهدى قد اضاءها سنىً ارخوا من كوكب الشرق ظاهرُ

وقال مؤرخا بناء مدرسة في دير المخلص قرب صيدا سنة ١٨٧٦ :

هذا مقام للمعارف قد غدا ببهاء انوار المخلص مشرقا
وافى مؤرخه فخطَّ ببابه قد لاح صبح العلم في فلك التقى

وقال مؤرخاً بناء كنيسة المدرسة نفسها في دير المخلص سنة ١٨٧٩ :

بيت لسيدة البشارة شاده رهبان دير المخلص ينتمي
فاهتف بتاريخ تحييها به واهدِ البشارة والسلام لمريم

وقال يؤرخ ضريح صديقه شاكر البتاوني المدفون في جوار دير المخلص سنة ١٨٩٢ :

رمس لشاكر بتاوني الكريم ثوى فيه فحيا ثراه وابل السحبِ
ريَّانُ ولَّى بسن الاربعين وقد امال غصن صباه عاصف النوبِ
ناح التقى بعده والمكرمات كما ابكى عيون الحجى والنبل والادبِ
قد مات حي الرجا عنا فصاح بمن يبكيه حسبك واصبر صبر محتسبِ
واكتب بقبر لدى التاريخ بتُّ به انا نزيلك فاشفع يا مخلص لي

وارخ بناء كنيسة مار بطرس الكاتدرائية في مرجعيون سنة ١٨٩٢ :

لقد بناه الجريجيريُّ اسقفنا بيتاً لبطرس تسعى نحوه البشرُ
بفضل امداد لاوون الذي اشتهرت في كل ارض اياد منه تنتشرُ
فكان بطرس بانيها لبطرس من كرسيِّ بطرس للامداد يدخرُ
لذاك اضحت وابواب الجحيم الى يوم النشور عليها ليس تنتصرُ
وكيف تغلب ارخ وهي آمنة في كل معنى بها من بطرس اثرُ

وقال يؤرخ ضريح السيدة الانكليزية استير استنهوب المدفونة قرب قرية جون مقابل دير المخلص . سنة ١٨٣٩ :

كريمة من بني استنهوب قد نزلت في طي قبر ندى الرضوان كللهُ
قضت باوطاننا من دهرنا زمناً اجرت به من صنيع الخير اجملهُ
لذاك ابقت لها فضلاً نؤرخه احيا لاستير ذكراً لا فناء لهُ

الى غير ذلك من التواريخ والقصائد والمقطعات البليغة التي نشر معظمها في ديوانه « العقد » . ولقد وقفت على كثير منها في اوراق منثورة مكتوبة بخطه لم تنشر ، انتخب بعضها حفظاً لها . منها قوله في صباه يندب شقيقه الشيخ حبيب الذي قضى في صباه واثرت وفاته بوالده فتوفي على الاثر . وهي قصيدة طويلة نختار منها ما يلي :

سابكي عليه كل ما لاح بارق ... برابية فاستمطر الدمع لائحُهْ
واندب ما ناح الحمام فهيجت ... بلابل قلبي للشجون منايحُهْ
(حبيب) شجى قلبي المبرح نعيه ... فأوجع لما صاح بالويل صائحُهْ
وادركني ما لم اكن متوقعاً ... وذلك اولى ما تخاف نوائحُهْ
وان يكُ امسى مفرداً في ضريحه ... فقد كثرت بين القلوب ضرائحُهْ
(حبيب) له في الحب عندي موائق ... تقوم به طي الفؤاد بوارحُهْ
اريحان نفسي اذهب الدهر انسها ... وقرة جفني بعدك الدمع قارحُهْ
وكنا يداً في الدهر حتى اصابنا ... بخطب تلقاني واياك جامحُهْ
ويوم تلقاني فضيع شؤمه ... بقية ايامي بما جرَّ نائحُهْ

الى ان قال :

ولا بد للإلفين من يوم فجعة ... تحملها الباقي فطالت بوارحُهْ
اذا امضت الاقدار قاطع حكمها ... تضيق على ليث الفلاة مسارحُهْ
عليه سلام الله ما لاح بارق ... وعاهده غادي السحاب ورائحُهْ

وقال في غيض نهر النيل في مصر . من قصيدة :

اخلف النيل فالقلوب صوادي ... تشتكي من تلهب الاكبادِ
يا لها نعمة لقد كانت الانفس م تحيا بها ويحيا الوادي

لجَّ فينا الظما على حين م لا مطفىء يوماً لحره الوقادِ
ليت شعري، وهو الحبيب، لماذا صدَّ عنا وكان الف ودادِ
ما الذي عاق وفده ولقد م كان دواماً يأتي على ميعادِ
اوحش العين مثلما اوحش الاذن م فما استأنست بصوت منادي
منهل في جوانب الارض يجري بلجين يلوح للنقادِ
بل لعمري هو النضار اذا ما جاء يجري في حلة الفرصادِ
فهو يغني الفقير من فيض جود لا ندى دون فيضه لجوادِ
كل عام يحيي لنا ميت النبت م فيبدو في اجمل الابرادِ
اين ذاك الوفاء يا خير وافٍ لم يحل عن وفائه المعتادِ

وقال يصف المحرك المائي الذي اخترعه يوسف ايلياس المهندس في بيروت لما احتفل به في محلة الجناح . من قصيدة . سنة ١٨٨٧ :

عُج بالجناح وقل للبعملات قفي وحيّه بلسان الشيّق الكلفِ
وسرح الطرف في ما فيه من عجب يلهو به الصب عما فيه من شغفِ
هذي هي التحفة الغراء قد برزت للناظرين فاروت غلة اللهفِ
محرك ابداً يجري الحراك به على أتم نظام غير مختلفِ
هو الحياة به يحيا الجماد فلو يناط يوماً بقلب الحي لم يقفِ
به انجلت قدرة الانسان واتضحت مزية الخلف الباقي على السلفِ
واصبح الشرق من زهو يجر به على المغارب ذيل الفخر والشرفِ

وقال يصف الياسمين :

انظر لزهر الياسمين وقد بدت اوراقه في الروض كالغصن الندي
شبهته بقلائد من فضة سقطت فصادتها سهام زمردِ

الى كثير من امثال هذه الروائع التي كان حقها ان تطبع في ديوانه «العقد» .

مؤلفاته ومصححاته وخدمته للصحافة :

ولع الشيخ ابرهيم من صغره في الصحافة والتأليف والتصحيح على خطة والده فتولى كتابة جريدة «النجاح» ليوسف الشلفون سنة ١٨٧٢ وله فيها مقالات رائعة وبحوث مفيدة . ثم اخذ مجلة «الطبيب» من منشئها الدكتور جورج بوست الاميركي فتولى تحريرها على عهدته مع زميليه الصديقين الدكتورين بشارة زلزل من بكفيا ، وخليل سعادة (مجاعص) من الشوير ، وذلك سنة ١٨٨٤ فظهر منها مجلد واحد لسنة كاملة . وله فيها مقالات رائعة منها «الامالي اللغوية» وغيرها. وكتب في بعض صحف عهده «كالجنان» و«التقدم» وغيرهما من مجلات وجرائد . ولما انتقل الى القطر المصري سنة ١٨٩٦ انشأ مجلة «البيان» المشهورة بابحاثها سنة ١٨٩٧ فظهر «البيان» باسمه واسم زميله الدكتور بشارة زلزل سنة واحدة . وبعد ذلك انشأ مجلته «الضياء» الشهيرة وحده سنة ١٨٩٨ فظهر منها ثماني مجلدات وعطلت على اثر مرضه ووفاته سنة ١٩٠٦. فكانت هذه المجلة مناراً للآداب العربية والبحوث العلمية والمصطلحات اللغوية في كثير من المستحدثات اذ نشر فيها مقالات كثيرة ، منها بحوثه اللغوية وانتقاداته ، من مثل «لغة الجرائد» و «اغلاط المولدين» وغيرهما. وكان ، وهو في بيروت ، قد ابتدأ بوضع مؤلفات كثيرة طبع منها «العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب» وهو شرح لديوان المتنبي الذي كان والده الشيخ ناصيف معجباً به فعلق على كثير من قصائده تفاسير واستدراكات . فاخذ الشيخ ابرهيم على نفسه شرح الديوان مطولاً فراجع بعض شروحه

وعارضها ، فاجاد في تفسير الكلمات واعراب الغامض من التراكيب ، ونقد شعر المتنبي بفصل ممتع ، واضاف الى هذا الديوان ما وجده من الشعر الضائع للمتنبي ، وهو اكثر من مئة بيت استخرجها من تضاعيف كتب التاريخ والادب . بدأ به سنة ١٨٨٢ باقتراح جماعة من كبار الادباء . ثم شرع بطبعه بمطبعة القديس جاورجيوس الارثوذكسية في تلك السنة باسم والده لانه كان برًّا به كثيراً . وانجز طبعه سنة ١٨٨٧ بعد خمس سنوات كان في اثنائها يحقق ويدقق وينقب . فجاء هذا الشرح في ٧١٤ صفحة بقطع الربع مذيلًا بحواش واستدراكات وتفاسير تدل على دقة ذهنه وكثرة جلده وسعة اطلاعه وضبطه . وضبط المتن باهم الحركات البنائية والاعرابية ووضع في آخره فهرس القصائد على حروف الهجاء . فكان هذا الشرح اشهر شروح المتنبي التي بلغت اكثر من اربعين (*)

واقترح على الشيخ كثير من العلماء والادباء ان يختصر كتابَي والده « نار القرى في شرح جوف الفرى » الارجوزة النحوية المطولة و « الجمانة في شرح الخزانة » الارجوزة المطولة في علم الصرف . فاختصر الارجوزتين اختصاراً يناسب المدارس في عهده ، وطبعتا تحت نظره طبعاً متقناً . ثم اخذ كتاب « الجوهر الفرد » لوالده وهو مختصر في علمي الصرف والنحو فشرحه بكتاب سمّاهُ :

(*) لما كان المعلوف مؤلف هذا التاريخ عضواً في مجمع فؤاد الاول للغة العربية في القاهرة اقترحت عليه لجنة اقامة الحفلة لتذكار الف سنة للمتنبي كلمة عنه في الاوبرا فالقاها وسرد اسماء اكثر من ثلاثين مؤلفاً من شروح المتنبي وبين مزاياها واماكن وجود المخطوط منها ، ووصف المطبوع بتفصيل واف ، ولاسيما شرح اليازجي ، ونقل من بعض ما وقف عليه منها اقوالاً مهمة مع استدراكات وتنبيهات ذات شأن نشرتها جريدة « المقطم » المصرية ، وذكرت بعضها مجلة « الصفاء » اللبنانية .

« مطالع السعد لمطالع الجوهر الفرد » وطبعه في المطبعة المخلصية بالحبرين الاحمر والاسود ، ثم في مطبعة الآباء اليسوعيين كما قلنا . واستقدمه الآباء اليسوعيون الى ديرهم في غزير لما شرعو بترجمة الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد واستعانوا به في اصلاح لغته العربية وتطبيقها على اللغات المعرب عنها . فدرس اللسانين العبري والسرياني بنفسه لضبط التعريب . فجاء هذا التعريب من ادق نسخ الكتاب المعربة . وبقي نحو تسع سنوات يتولى هذا العمل وتصحيح بعض الكتب لليسوعيين التي طبعوها في اثناء وجوده عندهم ، بمطبعتهم في بيروت بعد انتقالهم اليها .

ووقف الشيخ ابرهيم ، بعد ان ترك العمل عند اليسوعيين ، على تصحيح كتب كثيرة وتهذيب عبارتها . فما طبع منها كتاب « تاريخ بابل واشور » لجميل نخلة المدور البيروتي . وكتاب « عقود الدرر في شرح شواهد المختصر » لشاهين عطية اللبناني تلميذ الشيخ ناصيف اليازجي ، وضعه في شرح شواهد ارجوزة النحو « نار القرى » المختصرة وذيله الشيخ ابرهيم بصفحات في تحقيق رواية بعض الابيات ومعاني بعضها . وكتاب « دليل الهائم في صناعة الناثر والناظم » جمعه شاكر البتلوني اللبناني بارشاد الشيخ ابرهيم صديقه وضبطه بالحركات الكاملة وبوّبه باسلوب مدرسي مفيد وقد طبع مراراً . وكتاب « نفح الازهار في منتخبات الاشعار » جمعه البتلوني المذكور بتدريب الشيخ ابرهيم وضبطه بالحركات الكاملة . ولما كان في مصر وقف على طبع بعض الكتب منها « رسالة الغفران » لابي العلاء المعري الفيلسوف . وهي جواب رسالة ابن القارح له فطبعت في مصر . والقى الشيخ ابرهيم اليازجي خطباً ومحاضرات في بعض الاندية والحفلات والمدارس في بيروت ، منها ما القي في

الجمعية العلمية السورية وهو قصيدته الميمية التي مطلعها :

سلام ايها العرب الكرامُ   وجاد ربوع قطركم الغمامُ

وذلك سنة ١٨٦٨ . فنشرتها في مجلتي « الآثار » المجلد الثالث الصفحة ٣٥٣ . والقى خطابه في « الطب » في تلك السنة فنشرت القصيدة والخطاب في مجموعة الجمعية لسنتها الاولى، وطبع تاريخ الطب على حدة . ثم القى خطابه في « اصل اللغات السامية » في المدرسة البطريركية الكاثوليكية في بيروت في احدى حفلاتها . بحث فيه بحثاً لغوياً وتاريخياً وادبياً مبيناً ان اللغات السامية ترجع كلها الى اصل واحد والى عهد واحد . مثبتاً ذلك بالبراهين الدامغة . وقد نشر هذا الخطاب في مجلة « المقتطف » . والقى خطابه المشهور « ادب الدارس بعد المدارس » في حفلة البطريركية بعد ذلك وطبع هذا مرتين . ثم القى في محفل علمي مقالته « الاستدراك على علماء العروض في وزن مخلع البحر البسيط » اثبت فيه ان هذا الوزن اي « مخلع البسيط » يرجع الى بحرين مختلفين هما البسيط والمنسرح لما بينهما من المشاركة في التفاعيل ، وليس من البسيط خاصة كما هو شائع فيما بيننا الى اليوم . وطبع هذا الخطاب الذي القاه في محفل علمي في النشرة الاسبوعية للاميركان .

اما كتابه « نجعة الرائد في المترادف والمتوارد » في الفاظ اللغة العربية وتراكيبها فهو على اسلوب جديد كثير الفائدة في ضبط الفاظ اللغة ومصطلحاتها . وضعه في ثلاثة اجزاء . طبع منها جزءان والثالث بقي مخطوطاً . وكان قد بدأ بطبع هذا الكتاب وهو في بيروت مشروحاً بالحرف الجديد الاقتصادي الذي حفر امهاته كما سبقت الاشارة الى ذلك . فأنجز منه قسماً احترق في المطبعة الادبية لخليل سركيس في بيروت لما نكبت بالحريق .

وكان قد وضع وهو في بيروت كتابه « الفرائد الحسان من قلائد اللسان » وهو معجم بديع الوضع كثير الفوائد كنت اراه يشتغل به في زياراتي له . وكان قد سبق فبيض منه الى حرف الخاء . ثم انتقل الى مصر وهناك اخذ في اتمامه فلم يتوفق الى انجازه . وهو يشتمل على المأنوس من كلام قدماء العرب باسلوب علمي تطرق فيه الى موضوعات المولدين والمحدثين معرضاً عن المولد والمحدث في الاصطلاح . معتنياً بايراد الالفاظ الفصحى التي نطق بها العرب . وقد رأيت هذا الكتاب مع ابن شقيقه الشيخ حبيب في بيروت ، وباقيه هو تعاليق على حواشي الكتب ، ومذكرات في اوراق متفرقة ، واستدراكات مشتتة يصعب جمعها على غيره ، اعجله الموت عن انجازه .

« العقد » هو ديوانه الشعري وبعض رسائله المكتوبة بخطه الفارسي الجميل . معظمها محفور على الزنك بذلك الخط ، وبعضها بحروف مطبعية . طبع في البرازيل بمجموعة تشتمل على مئتين وخمس صفحات بقطع الربع العريض ، فيها قصائده ومقطعاته وتواريخه الشعرية ورسائله . وقد صدر بترجمة له ، وكله غرر تدل على سلاسة نظمه وفصاحة لفظه وبلاغة معانيه .

« شرح المقامة البدوية » (من كتاب مجمع البحرين) . نشره تلميذه الكاتب الالمعي جبران افندي النحاس ، مطبوعاً في الاسكندرية ، بقطع النصف ، سنة ١٩٤٠ في ٣٣ صفحة باتقان وحواش . فالمقامة على الهامش والشرح داخل الصفحات .

وبعد وفاته كان ما جمعه الشيخ ابرهيم من استدراكاته وتعاليقه على كتاب « محيط المحيط » لبطرس البستاني في مجلد رايته عندما كنت ازوره في بيروت . فكان يضع خطاً او علامة على الكلمة والهامش في ما يستوقف نظره من

الالفاظ والتعابير ، او يستدرك ما فات المؤلف ، فيعلق هناك ما يخطر له من الزيادات والتصحيحات بضبط ودقة بخطه الجميل . وقد اتصل هذا الكتاب بشقيقته السيدة وردة بعد وفاته فحرصت على حفظه ، واشارت الى ولدها الدكتور سليم شمعون ان يجمع تلك الاستدراكات ويحفظها مع ما اتصل بها من كتب خاله بعد وفاته . وبعد وفاة وردة كان ولدها الدكتور شمعون قد جمع ما وضعه خاله على باب الهمزة من معجم البستاني فاستعان بصديقه تلميذ اليازجي جبران افندي النحاس فطبعا تلك الاستدراكات بكتاب عنوانه « تنبيهات اليازجي على محيط البستاني » وذلك في مصر سنة ١٩٣٣ وسمياه الجزء الاول ، فوقع بمئة صفحة في قطع كبير . هذا اهم ما عرفناه من اعماله فضلاً عن كثير من مجاميعه واستدراكاته ومقالاته التي لعبت بها يد الضياع مما نأسف له .

وعلى الجملة فان الشيخ ابرهيم كان بطيئاً في اعماله يحب التدقيق والتحقيق والمراجعات . فلم تفسح له اشغاله الكثيرة وصحته المنحرفة ان يتممها .

اخلاقه وآدابه :

كان الشيخ ابرهيم ربع القامة نحيف البنية عصبي المزاج ذكي الفؤاد حاضر الذهن سريع الخاطر لا يمل مجالسه من محادثته . اما اخلاقه وصفاته فانه كان شديد الحرص على كرامته ، براً بابيه ، عارفاً قدر العلماء والادباء ، بعيداً عن الهجاء وعن خدمة مصالح الحكومة ، لانه انتدب سنة ١٨٨٢ ان يكون قائم مقام على مدينة زحلة من لبنان فرفض ، لانه عفيف النفس ظاهر الانفة الى حد الترفع ، كثير الاباء . ولولا ذلك لعاش في سعة وراحة . ولكنه كان يتمثل بالقول المأثور « القناعة غنى » . ولو اراد الشيخ مجرد الارتزاق بالتزلف والمجاملة لعاش في سعة من المال . وكان صادقاً في معاملته ينسب كل فضل الى صاحبه . وكان

من اعظم قرائحه الاتقان الفني لما يتعاطاه من صناعة او ادب او شعر . فكان ماهراً في الصناعة اليدوية ، حفاراً ومصوراً منذ حداثته . ومما يدل على تأنقه جمال خطه الفارسي البديع وتصويره اليدوي حتى صور نفسه عن المرآة صورة بديعة واصطنع حروف المطابع الجميلة فكان يحفرها بيده . ومنها الحرف الاقتصادي وقد ذكرنا كل ذلك . وادخل في الطباعة العربية بعد ذهابه الى مصر صوراً للحركات الافرنجية يحتاج اليها المعربون في التعبير عن الحركات الخاصة بها التي لا مقابل لها في العربية وقد كتب في مجلته « الضياء » امثلة منها .

وله اقوال وحكم رائعة تدل على اخلاقه وآدابه ومعيشته مثل قوله :

« التحدث في الخسارة خسارة اخرى من الوقت . »

« اذا ارتكب الانسان الرذيلة ولم يعلم به احد فأقل ما عليه ان يخجل من الانسانية . »

« لا يرتقي المرء في سلم الكمال حتى يعرف قدر نفسه . عرّفنا الله باقدار انفسنا . »

« مَثَلُ بعض السادات ومربوبيهم مَثَلُ بعض الناس يصنعون الصنم بايديهم ثم يعكفون على عبادته . »

« من انفق ايامه في الخير لم يحزن على زوالها كمن انفق امواله في اعتقاد العُقَد . »

« كان يقال في القديم : قيمة المرء ما يحسنه فصار يقال اليوم قيمة المرء ما يخزنه » . الى غير ذلك مما تراه ممثلاً في مقالاته ومعاملاته ومعاشراته . فمن طالع مؤلفاته ومصححاته وما كتبه في المجلات والصحف لا ينكر عليه هذه المبادىء الشريفة .

واما معيشته فكانت بسيطة يتعفف بطعامه وشرابه ، يتناول القهوة ويدخن النارجيلة في اثناء الكتابة ليستريح قليلاً من العمل . وكان في بعض الاندية التي يحضرها يلعب بالنرد (الطاولة) على سبيل التسلية او يتفكه بالاحاديث الادبية والنوادر اللطيفة . وقد مر شيء من منظوماته يدل على آدابه وجودة طباعه .

وفاته ومأتمه ومراثيه

نقل رفاته وتمثاله

توفي الشيخ في القطر المصري كما قلنا وذلك في ٢٨ كانون الاول سنة ١٩٠٦ عن ستين من عمره ولم يتزوج . فكانت حفلة مأتمه عظيمة مشى فيها كبار الحكام والعلماء والادباء والصحافيين من كل طائفة ومذهب . ونعته الصحف العربية والاجنبية في كل قطر بما يدل على منزلته الكبرى في عالم الادب حتى ان بعضها اطال في وصف آدابه واعماله وترجمته ونشر مراثيه ومن اقوال جريدة الشام الاسلامية عند نعيه تاريخ هجري لسنة ١٣٢٤ هو « ما مات الضياء » ثم اقيمت له حفلات كبيرة في مصر والشام والعراق وجميع البلاد العربية والمهجر والقى التآبين جمع من العلماء والادباء من كل امة . فكانت كلها تصور آدابه واعماله مما لا محل الان لنشر اقوالهم الكثيرة في مأتمه ونقل رفاته الى بيروت ونصب تمثاله فيها وحفلاته ولكننا نشير باختصار الى ان كل ما قيل فيه كان مع بلاغته اقل مما يستحق .

وحرصاً على حفظ هذه الآثار التي نشر بعضها في الصحف متفرقاً ولم يجمع في كتاب واحد وضعت له كتاباً بعنوان « مراثي الشيخ ابرهيم اليازجي » وهو يقع في ثلاثمئة صفحة . ذكرت فيه اقوال الصحف من مجلات وجرائد واقوال الشعراء والكتاب نثراً ونظماً في مأتمه ونقل رفاته وتمثاله وما يتعلق

بذلك مما امتاز به او وجد من آثاره غير مطبوع . ولم يتيسر لي طبع هذا الكتاب .

وهذه اسماء بعض الذين رثوا الشيخ على ضريحه وفي الحفلات التي اقيمت له مما وقفت عليه منشوراً في الصحف او على حدة وهي اكثر من خمسين مرثية . ومنهم مما رتَّبتُ اسماءهم على حروف المعجم مع حفظ الالقاب: ابرهيم الحوراني ، وابرهيم منذر المعلوف ، واحمد محرم المصري ، وادوار مرقص ، واسكندر العازار ، والياس الباشا ، والياس جرجس طراد ، والياس الحنيكاتي ، وامين طليع ، وامين كسباني ، وامين ناصر الدين ، وبولس زين ، وخليل المطران ، ورشيد مصوبع ، وسليمان البستاني ، وشبلي الملاط ، والامير شكيب ارسلان ، وعبدالله البستاني ، وعيسى اسكندر المعلوف ، وقسطاكي الحمصي ، وقيصر المعلوف ، ومحيي الدين الخياط ، ونجيب قطيني المعلوف ، ونجيب كنعان ، ونقولا رزق‌الله ، ويوسف خطار غانم ، وغيرهم .

فاقتصر الان على انتخاب شيء قليل مما رثيته به او قلته في تمثاله . فمن قولي في رثائه عند وفاته من قصيدة :

تنوح على ابن اليازجيّ المعارفُ وتلبس اثواب الحداد الصحائفُ
ويندب شيخ العلم وابن شيوخه يراع يطاطي رأسه وهو راعفُ
فروضة هذا البيت طابت فروعها بعاطر زهر فاح والظل وارفُ
وكم قصفت منها صغيراً ويافعاً وكهلاً وقد هبت عليها العواصفُ
« فوردته » ذاقت ثمالة حزنهم فتبكي « شقيقاً » طال معه التآلفُ
تقول « لابرهيم » بيتك مغلق وما ضمنه لولا « حبيبك » عاطفُ
حوى كتباً منضودة في خزائن وكم يغرف الآداب منهن غارفُ

الى ان قلت :

نعاه لنا البرق الصناعي فجأة بصاعقة من وقعها الرعد قاصفُ
وفطّر قلب العلم فالعلم ثاكل وفجّر سحب الدمع فالدمع واكفُ
وقد قال « مات اليازجيّ » ولم يزد فمن غيره يكفيه هذا التعارفُ

ولما نقل رفاته الى بيروت قلت فيه من قصيدة :

حيِّ رفات اليازجيّ مسلما واقم له حزناً يجدد مأتما
وابكِ المعارف والفنون بفقده فالكل اصبح بعده متيتما
هذا ابن « ناصيف » الذي شهدت له علماؤنا وعلى الجميع تقدما
الشيخ « ابرهيم » من آدابه بهرت فانطق واصفيه وافحما
من اسرة خدمت لسان العرب في كتب فاحيت بالمباحث معدما
طابت فروعاً كالاصول وانما درجوا وبيتهم الرفيع تهدما

وارخت ضريحه لسنة ١٩٠٦ بقولي :

امسى ضريح اليازجيْ برفاته يمتز اذ عز الورى بحياتهِ
علامة العصر الذي وقف الحياة م اطرسه ويراعه ودواتهِ
ملأ الصحائف والمكاتب ذكره ولكم تناقلت الورى آياتهِ
قد ذاق مر فراقه لبنان يوم م قضى بمصر جارعاً حسراتهِ
واليوم بيروت تضم عظامه هي هيكل الآداب في حجراتهِ
لو كان يمكننا افتداه من الردى لرأيت كلًّا يفتديه بذاتهِ
في حضن ابرهيم قر مميه بسعادة كانت جزا حسناتهِ
من سُرَّتِ العلياء في تاريخه كفل « الضياء » هنا برسم صفاتهِ

وارخت نصب تمثاله ببيروت سنة ١٩٢٤ من ابيات ختمتها بقولي :

«تمثاله» في باب «يعقوب» اعتلى فلذاك قد عمرت به اطلالُ
نال الجزاء من الاله نعيمه من زينته فضيلة وكمالُ
للنفس في دار البقا تاريخها ولك التحية ايها التمثالُ

هذاما انفسح له المقام الآن من آثار هذا العلامة اللغوي الكبير فنستمطر على ضريحه شآبيب الرحمة . كافأه الله جزاء خدماته العلمية والادبية فهو السميع المجيب .

الفصل الثالث

في زوجة الشيخ ناصيف وبقية اولاده وشقيقتيه

اولاً — زوجة الشيخ ناصيف

هي صابات (*) ابنة ابي ابرهيم موسى نصرة من اسرة الطويل الدمشقية . انتقل موسى هذا باولاده الذكور الثلاثة ابرهيم ونخله ورافائيل، وبناته السبع، الى بتدين لان الامير بشيراً الشهابي الكبير حاكم لبنان طلب من والي دمشق مهندساً بنائياً (وهو الذي يسميه الدمشقيون « الفا » وغيرهم يسميه « رازاً » اي رئيس البنائين) فارسل الوالي الى الامير بشير موسى هذا فاشتغل في قصر الامير في بتدين رئيس بنائين فلقب بالشامي . ومن بناته السبع صابات هذه . ولدت صابات في دمشق سنة ١٨١٣ وعرفت القراءة والكتابة وترعرعت

(*) تحريف اليصابات بلغة العامة .

على اخلاق سامية وذكاء فطري ونشأت بصحة جيدة فكانت تجتمع بزوار والدها عند الامير ومعظمهم ممن في ديوانه مثل المعلم بطرس كرامة الحمصي والشيخ ناصيف اليازجي والشيخ مرعي الدحداح ويوسف عمون وغيرهم .

فاكتسبت بمجالستهم حسن المحاضرة وطلاقة اللسان والميل الى المطالعة فمرضت مرة وطببها الشيخ ناصيف لانه كان قد تلقن الطب عن والده الشيخ عبدالله اليازجي الطبيب على مبادىء الشيخ الرئيس ابن سينا مؤلف القانون وغيره فبرئت . وتمكنت الصداقة بين الاسرتين اليازجية والشامية . فمال الشيخ ناصيف الى صابات لحسن آدابها واخلاقها وذكائها فطلبها من والدها موسى زوجة له، فاستمهله موسى يومين ليجيبه لانها كانت صغيرة السن ولها شقيقات اكبر منها لم يتزوجن . وسار الى الامير بشير واخبره بذلك وطلب رأيه . وكان الامير بشير يحب الشيخ ناصيف ويعرف مقامه الادبي واخلاقه السامية . فقال لموسى: (يخرب بيتك لا تقلب ولا صرارة(*)) فعاد موسى في الموعد المضروب واخبر اليازجي بقبوله بتزويجه ابنته . فصار الشيخ يتردد على بيت الشامي كخطيب لابنته ثم اتخذها زوجة نحو سنة ١٨٣٢ على اثر فتح ابرهيم باشا المصري لسورية ولبنان . فجهزها الامير بشير مثل اخواتها وسرَّ بان تكون زوجة لليازجي . فرزقا ستة ذكور وست اناث ترعرعوا على حب المعارف ودماثة الاخلاق ناشئين في بيت علم وادب .

وامتازت صابات والدة الاسرة الكبيرة بتربيتها على الفضيلة مدبرة بيتها بحكمة فائقة ومهذبة اولادها بمراقبة وحسن قدوة فساعدت بذلك زوجها

(*) الصرارة يعرف عامتنا الحجر الصغير . وهذا المثل يعني ان الماشي على الطريق طالباً السرعة لا يقلب الحجر الذي امامه .

اليازجي العلامة بانها رفعت عنه بمساعدتها اعباء العناية باولادهما وهم اسرة كبيرة . فانصرف اليازجي الى اعماله العلمية وخدمته في ديوان الامير وتجرد عن الانهماك بشؤون البيت وتدبير الاسرة متكلاً على زوجته الحكيمة شريكة حياته على حد قول مثلنا العامي (الرِّجال جَنًّا والمرأة بنًّا[1]) وكثيراً ما تساعد النساء ازواجهن بمثل هذه العناية فيتفرغون لاعمالهم الكبيرة كما عرفنا ذلك عن كثير من المشاهير . وما اصدق قول نابليون بونابرت : « اني مدين لامي بكل ما اكتسبته من الفخار وما احرزته من العظمة لان نجاحي كان ثمرة من مبادئها القويمة وادآبها السامية . »

وكانت صابات ربعة القامة، سمراء اللون، مستديرة الوجه، كبيرة العينين، لطيفة الملامح، عاقلة نشيطة ، قوية الذاكرة، لطيفة الحديث ، فصيحة اللفظ، مدبرة لبيتها، رصينة في اخلاقها، حتى ان زوجها ما كان يعرف شيئاً من امور النفقة وحاجة الاسرة، بل قامت هي مقامه في كل ذلك حتى كان يقول : « لو اوصيت الاله ليخلق لي زوجة كما اريد ان تكون لما خلق احسن من زوجتي صابات »

فعاش الزوجان عيشة راضية وتمتع اولادهما ذكوراً واناثاً بتلك الراحة البيتية ونبغ كثير منهم بالعلم والشعر والصناعة والتجارة .

وتوفيت صابات سنة ١٨٨١ عن ٦٨ سنة ودفنت في مدفن اليازجيين في محلة الزيتونة [2] .

---

(١) اي ان الرجل يجني الدراهم للبيت والمرأة تبنيه .

(٢) نشرت ترجمتها مطولاً في كتابي : (نوابغ النساء) الكبير الحجم المخطوط ولخصت منه كلمة فيها مع رسمها في مجلة (قب الياس) المجلد الثاني الصفحة ١٨ .

ثانياً – لمحة في بقية اولاد الشيخ ناصيف

قلنا ان اولاد الشيخ ناصيف وصابات زوجته كانوا ستة ذكور وست اناث فترجمنا العلماء والشعراء منهم والان نذكر بقيتهم بحسب تاريخ وفياتهم. فمن الذكور :

١. الشيخ فارس

ولد في بيروت مع اخيه عبد الله، وهما توأمان، في تضاعيف سنة ١٨٤٥ ونشأ في بيت العلم فألم بالعربية. وكان نحيف البنية يلقب بالفاعور لجهارة صوته وكبر جثته ثم سافر الى الارجنتين متجراً وعاد نحيلاً فمات في بيروت عن نحو ٢٢ سنة وذلك سنة ١٨٦٦ فدفن في مدفن اسرته بالزيتونة ونقش على ضريحه هذه الابيات الباقية الى يومنا :

غادرت آل اليازجي بحسرة طالت ودمع كالسحاب تدفقا
سموك « فارس » فاستبقت وهكذا شأن الفوارس ان تجدّ وتسبقا
ورحلت في الثنتين والعشرين من دار الشقا فنزلت في دار البقا
ولذاك قد هتف المؤرخ باكراً ناح الحمام عليك يا غصن النقا

ورثته شقيقته وردة في ديوانها « حديقة الورد » المطبوع ثالثة في الصفحة ٥٣ بقصيدة قالت منها :

ياويح خنساء عيني وهي باكية صخراً بدمع لديه الصخر قد لانا
يا مهجة القلب هل عود نؤمله وهل كتاب سلام منك حيانا
بكت على فقدك الاخوان دمع دم واستبدلت عن لذيذ الانس هجرانا
البستني ثوب حزن لست اخلعه حتى ابدّل منه فيه اكفانا

وقالت من مرثيتها لشقيقها الشيخ حبيب سنة ١٨٧٠ تشير اليه :

يا « فارس » اليوم ابشر قد اتاك على قرب « حبيب » فلا تشكو من الملل
بدران اظلمت الآفاق بعدهما في مقلتيَّ وضاقت بالاسى سبلي

٢ . الشيخ نصار

ولد في بيروت سنة ١٨٤٣ ونشأ كباقي اخوته على حب الادب ، فاتقن القراءة العربية الفصحى حتى كان والده يستقرئه دون اخوته . وكان اسمر اللون ، اسود الشعر والعينين النجلاوين ، مهيب الطلعة ، ربعة القوام ، عريض المنكبين ، معتدل الجسم في السمن ، جيد القريحة ، دمث الاخلاق . والمَّ بآداب اللغة ولكنه مال الى صناعة الصياغة فاتقنها على يوسف انطون النحاس ، والد الشاعر الناثر جبران النحاس ، تلميذ الشيخ ابرهيم ، نزيل الاسكندرية ، وهو دمشقي الاصل . وقد تدير بيروت سنة ١٨٦٠ واتصل بآل اليازجي ، فلازمه نصار وبرع بالصياغة واشتغل فيها . وله تفننات بديعة واعمال رائعة . ومن النكات التي تروى عنه انه كان عند الجوهريين في بيروت (سمسار) اسمه الياس كان بارد الطبع كثير البلادة مهملاً ، فطلب الصاغة يوماً من نصار ان يهجوه فتردد كثيراً لان آل اليازجي يكرهون الهجاء من طباعهم الراقية وآدابهم الرفيعة . فلما ابرموه قال نصار فيه هذين البيتين :

اني لاحلف بالذي خلق الورى قسماً بعيسى والنبي محمدا
لو كان يطرح شعرة من رأسه في نهر دجلة برهة لتجلدا

ولم نعرف من شعره غيرهما . وله مقطعات بليغة في عباءة نشرها مستشرق غسوي . وقد نبغ في النقش والتمويه بالكهربائية المعروف عند الصاغة بالطلي .

وله في ذلك اعمال تدل على براعته وبواسطتها استمال شقيقه المرحوم الشيخ ابرهيم الى الحفر والنقش .

ومال نصار بعد ذلك الى استثمار الارض بالزراعة فاخذ من المرحوم نخله المدور صديق والده ، قرية «تعلبايا» في بقاع العزيز قرب زحلة وانصرف الى فن الزراعة فاتقنه ، وقطن في تلك القرية مع زوجته عفيفة ساروفيم ولكن المستنقعات الكثيرة المحدقة بتلك القرية ولاسيما في غاب عميق وما يجاوره كانت تبعث بجراثيم الوبالة (الملاريا) القتالة فتنشر الحميات الشديدة الاضرار بين سكان البقاع اصيب الشيخ نصار بحمى فتاكة ونقل الى مدينة زحلة لمعالجته فكان داؤه عضالاً لم ينجع فيه دواء. فاستأثرت به رحمة ربه في زحلة يوم الاحد في ١٨ تشرين الاول سنة ١٨٧٤ فاقيم له مأتم عظيم ، وكان الحزن عليه شديداً فدفن في جوار سيدة النجاة في زحلة وابنه بعض الآباء والادباء. فقال شقيقه الشيخ ابرهيم اليازجي مؤرخاً ضريحه في الصفحة ١٢٨ من ديوانه « العقد » :

هذا ابن قطب عاوم الشرق عاجله سهم المنايا فأدمى بعده المهجا
اطال حسرة آل اليازجي فبكوا لفقد « نصار » دمعاً بالدما مزجا
غصن لوته يد الاقدار فابتدرت تبكي عليه حمامات اللوى هزجا
قد حل منترحاً في ظل « سيدة » من أمها خائفاً هول القضاء « نجا »
فخطّ من فوق مثواه مؤرخُهُ اني غريب الى مأوى البتول لجا

وتوفي عقيماً وزوجته عفيفة اقترن بها الشيخ ملحم ابن الشيخ راجي شقيق الشيخ ناصيف كما سيأتي، وتوفيت في بيروت سنة ١٩٣٣ .

وقالت شقيقته وردة ترثيه بقصيدة طويلة في ديوانها « حديقة الورد »

الطبعة الثالثة والصفحة ٣٩ عددت فيها مصائب بيتهم مطلعها :

ويلاه ويلاه كم نشكو وننتحبُ وكم علينا صروف الدهر تنقلبُ
وكم تجور الليالي في حوادثها على فؤاد بنار الحزن يلتهبُ
قد اشعل البين في قلبي الحزين لظى يزيده دمع عيني وهو ينسكبُ
روحي فدى من به ايدي القضا نشبت سهامها بل بقلبي السهم منتشبُ
ويحي على غصن بان مال منكسراً كأنه الرمح غالت قده النوبُ
ويحي على بدر تم بات منخسفاً تحت الثرى ومحت انواره الترب
ويحي على من تولى بعد مصرعه صبر الحشى وتوالى الحزن والوصبُ
يا ويح قلبيَ كم سهم اصيب به فلم يزل بدماه الجفن يختضبُ
مصائب لست ادري من تكاثرها فيه على ايها ابكي وانتحبُ

الى ان قالت مشيرة الى مدفنه في زحلة وقد فاقت الخنساء :

يا ارض زحلة لي في حبها شغف اذ في حماها شقيق الروح محتجبُ
ارض لروحيَ في اكنافها سكن لذاك قلبي له في حبها اربُ
يا راحلاً راح صفو العيش يتبعه واستوطنت بعده الاحزان والكربُ
ان كنت عن مقلتي قد غبت محتجباً فان شخصك فيها اليوم منتصبُ
وان تكن بتَّ طي الترب واأسفي ففي الترائب رسم منك يحتجبُ
يا قلب صبراً على ما قد اصبت به ولا تروعك البلايا وهي تعتقبُ
قد عودتك الليالي الحزن من صغر حتى غدوت الى الاحزان تنتسبُ

رحمه الله واحسن جزاءه.

٣ . الشيخ عبدالله

ولد في بيروت سنة ١٨٤٥ وكان هو وشقيقه فارس الآنف ذكره توأمين وكان له المام كاف بقواعد اللغة العربية ومعرفة بالنظم والادب ولكنه مال الى التجارة في بيروت فكان حسن المعاملة . ومخزنه في سوق الطويلة . ولما طبع شقيقه الشيخ ابرهيم « مجمع البحرين » لوالده بالمطبعة اليسوعية في بيروت في ك ٢ سنة ١٨٧٣ اعلن في مجلة « النجاح » عن بيع الكتاب في مخزن اخيه عبدالله .

ثم سافر عبدالله الى البلاد الاميركية وصرف فيها مدة متجراً فنال من تجارته حظاً وافراً . ولكنه مرض فعاد الى بيروت . وتوفي فيها نحو سنة ١٨٩٥ عن خمسين سنة . فرثته شقيقته وردة بهذه القصيدة تعدد فيها نوائبها التي توالت على بيتهم العلمي بقولها في ديوانها « حديقة الورد » الطبعة الثالثة والصفحة ٦٠ وهي كلها :

أعيناي جودي بالدموع السواكبِ	وفيضي دماء بعد فقد الحبائبِ
لعلك تطفي بعض ما خامر الحشى	من النار او تشفي جراح النوادبِ
طوى الدهر ما بيني وبين احبتي	وجمّع ما بيني وبين المصائبِ
تتابعت الارزاء من كل جانب	علي كما ينهل غيث السحائبِ
« ولو كان همٌّ واحد لاحتملته » (*)	ولكن هموم اعجزت كل حاسبِ
شقيقيَ « عبدالله » أنى تركتني	بقلب جريح من فراقك ذائبِ
أيا غصن بان قد بغى البين كسره	ويا قمراً اخفته سحب النوائبِ
ويا كوكباً قد غاب عنيَ في الثرى	وما هكذا عهدي غياب الكواكبِ

(*) هذا تضمين من قول الشاعر في صدر بيته المشهور :

ولو كان هم واحد لاحتملته ولكنه هم وثانٍ وثالثُ

لئن غبت عن عيني فشخصك لم يزل امــامي في طي الحشى والترائبِ
وقد كنت ارجو ان ارى لك عودة فخاب رجائي فيك من كل جــانبِ
فيا دمع عيني لا تجفَّ من البكا ويا جمر قلبي لا برحت مصــاحبي
سلام على ذاك الضريح ورحمة تفيض عليه كالغيوث السواكبِ
سابكيك دهري ما حييت وان امت ستبكي عظامي تحت طي الترائبِ

فهكذا كانت نوائب هذا البيت الشهير بفقد الذكور الستة اعزاباً الا الشيخ نصاراً الذي توفي متزوجاً عقيماً والشيخ خليلاً الذي ترك ذكراً واحداً هو الشيخ حبيب بقية هذا البيت الذي نذكر لمعة مختصرة عنه تتمة للبحث .

٤ . الشيخ حبيب ابن الشيخ خليل

هو حفيد الشيخ ناصيف من والديه الشيخ خليل وفدوى ابنة جبرائيــل الكاتب (*) . رزقا اول ذكر باسم حبيب سنة ١٨٨٤ فارخ والده ولادته في ديوانه « نسمات الاوراق » طبع مصر سنة ١٩٠٨ الصفحة ١٤٧ من ديوانه . وأرخها عمه الشيخ ابرهيم في ديوانه « العقد » الصفحة ١٤٧ .

ثم رزق الشيخ خليل ذكراً آخر سنة ١٨٨٧ سماه حبيباً وهو هذا فأرخ ولادته في ديوانه « النسمات » الصفحة ١٥١ بقوله :

عاد الحبيب الينــا بعد غيبته كالبدر اشرق فينا بعد مغربه

(*) يقال ان بني الكاتب هؤلاء من انسباء اليازجيين في دمشق اشتهر منهم جبران هذا وابن شقيقه الاب الكسبوس الراهب الشويري المشهور بآدابه ومؤلفاته . وأرخ الشيخ خليل في ديوانه « نسمات الاوراق » الصفحة ١٤٦ ميلاد خليل ابن جبرائيل حميه ونظم تاريخاً لضريح اسرة الكاتب . وأرخ ضريح سليم الكاتب نسيبه في تلك الصفحة ورثاه بقصيدة في الصفحة ٥٨ وهو ابن جبرائيل وكلها عاطفة ورقة على طولها .

فقلت لما تبدى للمؤرخ ذا هو الحبيب المفدّى من سررت بهِ

وأرخها عمه الشيخ ابرهيم في ديوانه « العقد » الصفحة ١٥٣ بقوله :

هذا غلام للخليل اتى وقد حيته غرته بوجه حبيبهِ

رد الاله بوفده فرطاً مضى واعاد من صفو الهناء وطيبهِ

فانعم به أرخت وابشر انه عاد الحبيب اليك بعد مغيبهِ

وتوفي والده الشيخ خليل بعد سنتين من ولادته فاحتضنته والدته فدوى بعد زواجها بالخواجه بشارة يارد البيروتي (*) مدة ثماني سنوات . ثم احتضنه عمه الشيخ ابرهيم بعد ان بلغ العاشرة من عمره مستقدماً اياه الى القاهرة سنة ١٨٩٧ . فدرس بمدرسة الآباء اليسوعيين التي كان عمه مدرساً فيها . وبسن الرابعة عشرة ارسله الى بيروت فتعلم في المدرسة البطريركية اربع سنوات ونال الحذاقة « البكالوريا » سنة ١٩٠٥ وعاد الى مصر يزاول الكتابة في مجلة عمه « الضياء » وهو يدربه على الانشاء . فكتب مقالات فيها . ثم درس فن المحاماة في مدرسة الحقوق الفرنسية بمصر واكمل دروسه الحقوقية في باريس ونال شهاداتها وعاد الى الاسكندرية وانشأ فيها مكتباً للمحاماة امام المحاكم المختلطة لان المرافعات كانت باللغة الفرنسية وقضاة المحاكم اجانب . فنال منزلة لديهم لانه دكتور في الحقوق والفلسفة والآداب من كلية باريس الجامعة .

وسنة ١٩١٤ طاف اوربة الى جنيف ونشبت الحرب الماضية وكان قد

(*) بنو يارد اسرة قديمة في بيروت اشتهر منها يوسف وطنوس وحنا بنفوذ كلمتهم عند احمد باشا الجزار والي عكا كما ذكر ذلك الفنان ارسانيوس كرامة وحنانيا المنير الشويريان في تواريخهما المخطوطة في خزانتي . واشتهر بعدهم كثير من هذه الاسرة مثل بطرس وشاهين، وولدي بطرس، وعمها يوسف واندراوس، بالثروة والوجاهة، ومنهم باسيل الذي خدم الحكومة في بيروت . وبشارة هذا من وجهائها . ومنهم ادباء واعيان .

درس في مدرسة القديسة حنة في القدس الشريف باشارة خال والدته الطيب الذكر المطران يوسف الدوماني اسقف طرابلس الكاثوليكي الذي استودعه معظم كتب اليازجيين بعد وفاة عمه الشيخ ابرهيم فنزعت نفسه الى الكهنوت فسيم كاهناً في ٢٩ حزيران سنة ١٩٢٢ باسم الخوري حنا ثم غلب عليه اسم الخوري حبيب واشتهر به وذلك في باريس .

وفي سنة ١٩٢٥ ترك الكهنوت وجاء مدينة زحلة بثوبه العامي وقابلته فطلب مني رسالة الى اولادي في سان باولو (البرازيل) لمساعدته بعمل هناك . وسافر اليها وتزوج بالسيدة نبيهة ابنة رشيد المشعلاني (*) من عبيه نزيل البرازيل في اول ايلول سنة ١٩٢٦ فرزق ذكرين الاول باسم ناصيف جده في ١٧ تشرين الاول سنة ١٩٢٧ والثاني باسم خليل والده في اواسط آب سنة ١٩٣٠ في مدينة سان باولو .

واشتغل بالادب وسافر الى الارجنتين وافريقية واميركة الشمالية واوربة الغربية وكان يلقي محاضرات بخمس لغات اتقنها وهي العربية والفرنسية والانكليزية والاسبانية والبرتغالية . وكتب في بعض الصحف الاجنبية مقالات ادبية واقتصادية لخدمة الجالية ثم في الصحف العربية حبر مقالات تاريخية عن

(*) ينتسب بنو المشعلاني او البشعلاني الى قرية بشعله في البترون . اشتهر منهم ابو رزق في القرن السابع عشر بتقربه من حكام طرابلس الشام . ومن سلالته يونس الذي جاء متن لبنان وسكن صليا . ومنهم نجم اندريا من خاصة الامير حيدر اسماعيل اللمعي والخوري حنا باني كنيسة سيدة النجاة فيها وغيرهم من كهنة وعلماء وادباء . ومنهم حنا الذي تقرب من الامير حيدر الشهابي المؤرخ في شملان . ولهم بقية هناك وفي عبيه ومصر والمهجر . ومنهم فروع باسماء مختلفة مثل ابي راشد وحرفوش ونكد وقشعمي وضومط ومراد وحجيج .

اسرته ، وادبية ولاسيما في مجلة « الاصلاح » للدكتور جورج صوايا في بونس ايرس وغيرها . وطبع ديوان عمه الشيخ ابرهيم « العقد » بالبرازيل ومعظمه بخطه الفارسي الجميل . وعرب رواية تمثيلية ذات ثلاثة فصول عن الكاتب الفرنسي الشهير « اندره جيد » وطبعها بعنوان « الملك اوديب » في بونس ايرس سنة ١٩٣٢ في ٣٨ صفحة بقطع كبير ومقدمتها بقلم الدكتور صوايا صاحب « الاصلاح » . وهو قصير القامة ، بدين الجسم متوسطه ، جيد الذاكرة ، حسن الحديث .

وفي صيف سنة ١٩٣٦ عاد الى لبنان بطريق الولايات المتحدة الاميركية فقابلته في بيروت وزحلة ورأيت مؤلفات جده وعمه ووالده المخطوطة التي اودعها عند جدته لامه مدام الكاتب في بيروت ونقلت عنها اشياء لتاريخ اسرته اليازجية الذي وضعته لها بعنوان : « الغرر التاريخية في الاسرة اليازجية » . ثم عاد الى اوربة في اواخر سنة ١٩٣٦ ومنها الى البرازيل .

فهو بقية الاسرة اليازجية من الذكور وولداه الذكران يجددانها بعد ان كادت تنقرض اما بقية فروعها الاخرى فلا تزال متسلسلة في الوطن والمهجر وقد نبغ منها كثيرون بالعلوم والفنون مما فصلته في كتابي « الاخبار المدونة والمروية في انساب الاسر الشرقية » في ١٤ مجلداً مخطوطاً .

ثالثاً — شقيقتا الشيخ ناصيف

كان للشيخ عبدالله اليازجي ابنتان هما راحيل وليا شقيقتا الشيخين ناصيف وراجي . فراحيل زوجة رافائيل الدقي سيأتي ذكرها في الجزء الثاني من هذا الموجز مع الاصهار ، وليا توفيت عزيبة .

واما الشيخ ناصيف فرزق ستة ذكور مرت ترجماتهم ، وست بنات من زوجته صابات الشامي وهذه اسماؤهن بحسب وفياتهن : راحيل ومريم وآسين وحنة ووردة وسارة رحمهن الله . وكلهن قد تزوجن ورزقن بنين وبنات كما سيذكر في المجلد الثاني من هذا المختصر .

الفصل الرابع

في اخوة الشيخ ناصيف

وهم ابناء الشيخ عبدالله الذي مرت ترجمته فيما تقدم من هذا المختصر وكانت زوجته السيدة بريجيتا من آل العقاد في كفرشيما ذات اخلاق جيدة وآداب حسنة دبرت اولادها وادارت بيتها بغيرة وحسن ترتيب شأن نساء عصرها الفاضلات ادباً فطرياً وذكاء طبيعياً فتوفيت نحو سنة ١٨٣٨ م . اي بعد وفاة زوجها بنحو سنة واحدة احسن الله جزاءهما وتغمدهما برحماته .

فرزق الشيخ عبدالله من زوجته هذه ثلاثة مشايخ وهم ناصيف وراجي ونصار الذي توفي عزيباً شاباً وكان ذكياً اديباً . فالشيخ ناصيف مرت ترجمته . وهذه ترجمة الشيخ راجي شقيقه .

الشيخ راجي

هو شقيق الشيخ ناصيف وهما ولدا الشيخ عبدالله وبريجيتا الآنف ذكرهما . ولد راجي في كفرشيما نحو سنة ١٨٠٣ م . وتلقى العربية على والده ثم اتقنها على

شقيقه الشيخ ناصيف وتضلع من آدابها وكاف بالنظم فاجاده . واتقن الخط العربي غاية الاتقان . بحيث بلغ من التأنق بالخط الى حد انه كان يضع القلم بين اصبعي رجله ويكتب فيه خطاً بديعاً ، كما اخبرني ولدا اخيه الشيخ ابرهيم والسيدة وردة ، وولده الشيخ ملحم . وكان راجي مدرساً لبعض الرهبان الباسيليين الشويريين في دير القديس انطونيوس القرقفة بجوار كفرشيما فنبغ على يده بعضهم . ونظم راجي قصائد ومقطعات كثيرة ضاع اكثرها لولا حرص وطنيّه سليم بك تقلا منشئ جريدة الاهرام على حفظ بعضها ، ولولا حرص خليل الارقش الذي كان يستظهر داليته المطولة الحكمية المفقودة الآن . فبقي قليل من منظوماته الرشيقة مثل المقطعات والقصائد والموشحات والتخاميس والتشاطير والتواريخ الشعرية ونحوها . جمعت منها ما امكن الوقوف عليه من مظان مختلفة ومخطوطات ومحفوظات في ديوان ضممته الى (مجموعة الدواوين الشعرية المفقودة) التي وضعتها حفظاً لآثار الادباء المنسية او المشتتة في اوراق او المحفوظة في الذاكرة ومنها (المقامة الحدثية) التي وضعها تذكاراً لحادثة جرت له في حدث بيروت فنسبها اليها وفيها نثر وشعر . الى غير ذلك .

واقترن الشيخ راجي بابنة الرباط من بيروت فرزق منها الشيخ سليماً والآنسة حواء . فالاول توفي عن نحو عشرين سنة عزيباً وكان اديباً . وحواء ترهبت في دير البشارة للروم الكاثوليك في زوق مكايل (لبنان) (*) وتوفيت

(*) في سجل الدير المذكور ما نصه : « الاخت حوا راجي اليازجي حضرت الى الدير في ١٩ حزيران سنة ١٨٥٩ ولبست ثوب الابتداء . ونذرت النذور المقدسة في ١٧ نيسان سنة ١٨٦١ . . . ثم انتقلت اليه تعالى في ٥ ايار سنة ١٨٧٠ حاوية مجموع الفضائل ، اخصها الصبر والاماتة والطاعة رحمها الله امين » .

والدتها فتزوج والدها ثانية بالسيدة سوسان ابنة ايوب الدهان (*) فرزق منها المشايخ ملحماً وصالحاً واسكندر فالاخيران توفيا شابين .

وبقي المترجم يخدم الادب الى ان استأثرت به رحمة ربه سنة ١٨٥٦ فارخ ضريحه المرحوم حنا بك الاسعد الصعبي كما في ديوانه المطبوع بقوله :

مذ سار راجي اليازجي الى السما وغدا الى المولى العلي مناجيا
قد جاء في ذاك المؤرخ راقياً قد زار فضلك يا الهي راجيا

(*) اسرة الدهان قديمة في بيروت اصلها من جبل القلمون عرف منها دهان ابن عبد الله الشهير بابي الياس النصراني سنة ١٦٧٨ في بيروت وهو جد الاسرة التي اشتهرت بالوجاهة والغنى . ونبغ منها بطريرك واسقف وكهنة واعيان وادباء منهم كثيرون في زوق مكايل في القرن الثامن عشر وما بعده . وذهب بعضهم الى مصر . واشتهر منهم فيها رفول قنصل فرنسا في طنطا . وفارس الدهان ، وسيف الدهان ، في بيروت . وارخ الشيخ ناصيف كثيرين منهم كما في دواوينه ، مثل حبيب الدهان وجرجس الدهان المتوفيين سنة ١٨٤٥ . ثم ارخ وفاة ايوب والد سوسان امرأة اخيه المتوفى سنة ١٨٥٧ بقوله :

ابكى عيون بني الدهان دمع دم غصن يحق عليه الحزن والكمدُ
قد عاجلته بامر الله خاطفة ايدي المنايا التي في قلبها الحسدُ
بكت عليه جميع الناس من اسف في ثغر بيروت حتى ارتجت البلدُ
هناك احرف تاريخ لقد رسمت من بعد ايوب مات الصبر والجلدُ

وارخته السيدة وردة في ديوانها « حديقة الورد » بقولها :

هذا فتى من بني الدهان حين مضى اجرى لهم بحر دمع بالدماء جرى
في مضجع ارخوه قد كتبت له يا قبر ايوب يسقيك الندى سحرا

ونشرتُ لمعة عن آل بني الدهان في «النشرة الرعائية» لاسقفية بيروت الكاثوليكية، المجلد الرابع الصفحة ٩ ، مقتطفة من كتاب « الاخبار المدونة والمروية في انساب الاسر الشرقية » الذي الفته في ١٦ مجلداً مخطوطاً .

شعره :

كانت بينه وبين ادباء عصره مراسلات نثرية وشعرية . منها قصيدة ارسلها اليه الخوري جرجس عيسى السكاف الزحلي جواباً على قصيدة بعث بها اليه في سنة ١٨٥٥ كما في ديوانه المخطوط بخزانتي الذي وصفته بمجلة « المشرق » البيروتية (٩ : ٤٩٤ و ٥٤١) منها :

بدأت القول بالله الكريمِ افي حق المحب المستديمِ
رجوت الله ربي العون حتى اكافي عبده (راجي) نديمي
عريق الاصل طلاع الثنايا وفور الود ذا القلب السليمِ
سما اهل العلوم بكل فن تراه عالماً واخا العليمِ

ومنها :

وقد حفظ الوصايا من صباه كما دفعت الى موسى الكليمِ
اتت الفاظه بالنظم وعظاً كما يوماً اتت حكم الحكيمِ
قصائده فريدات تراها لها معنى ارق من النسيمِ
وكُلِّفتُ الوفاء لرد شكر فكان العذر من عقلي العقيمِ
فما حزت الذي ابغيه رداً وعقلي ضائق كبياض ميمِ
فيا (راجي) الاله بكل امر ارح (راجيك) من قلب سليمِ
ولا تبخل بسبل الستر عفواً لان العفو من شيم الكريمِ

اما شعر الشيخ راجي فقد فُقِد منه كثير مثل هذه القصيدة التي اجابه عليها الخوري جرجس عيسى ، وقصيدته الحكمية الطويلة ، وغيرها من التواريخ الشعرية والمقطعات .

فما بقي من ديوانه الذي جمعته له قوله في (مقامته الحدثية) من ابيات ضمّن فيها شطر الطغرائي من لاميته المشهورة ولها حادثة :

لقد دعاني اليه من وثقت به فاصبح الامن نفس الخوف والوجل
احذر صديقك تسلم من اذاه ولا تركن له قط في قول ولا عمل
ولا تعول عليه فالحكيم اذن « من لا يعول في الدنيا على رجل »
تبًا لها ليلة لم يلقها احد بعدي ولا قبله في الاعصر الاول
اني ندمت على ما فات من غلطي ندامة لم تفد نفعاً لذي خلل
فقد زللت بشيء كنت اعمله والمرء ليس بمعصوم من الزلل

وقوله هذه الابيات في غدر الزمان والاصحاب :

لا تركنن الى الزمان ولو صفا فتقلب الحالين ليس بمن صفا
يرميك في شرك المحبة عامداً فتطيعه وتظنه لك منصفا
يبدي الملاحة والقباحة حينما ترجو وفاه او تروم تعطفا
لا خير في خلّ تكون صفاته صفة الوشاة كلامهم قد حرفا
ان الامان الى الزمان وحاله م الجهل المركب ، من تعاطاه اكتفى

وقوله لما قلع ضرساً له نخرة :

ولقد رايت سليم ضرسي خانني بتألم الاوجاع والتعذيب
فقلعته لما تزايد عيبه والحر يكره صحبة لمعيب

ومن قصائده البديعة قوله في مدح الامير امين ارسلان قائم مقام الدروز . وهي طويلة بليغة قال منها :

لك الفتح من مولاك والسعد والنصرُ لك البشر بالتأييد مني لك البشرُ
فانت عظيم الدهر مفرده الذي علا فعنا كرهاً لطاعته الدهرُ

وانت (امين) اودع الله عنده ودائع فضل ليس يدركها الفكرُ
شجاع يحب البيض والسمر مغرم ولكنما اعداؤك البيض والصفرُ
وفي كفك البيضاء ابيض صارم عليه متى سالت دما القوم يفترّ
ورمح رديني طويل مكعب فمن طوله في الحرب قد قصر العمر
افدتهما بالنظم والنثر خبرة فدأبهما يوم الوغى النظم والنثرُ
فذا ينظم الاحشاء رأس سنانه وذا ينثر الاعضاء ان فاته النحرُ
وقد حصّلا علم الجراحة منك في مداواة اجسام الاعادي ولا اجرُ
اذا لقيا الاعداء في الحرب لم يكن دواهمُ الا القطع والفتح والكسرُ
وان يعطشا حيناً فشربهما دم واكلهما ، إن يسغبا ، القلب والصدرُ
على ادهم من اجود الخيل ضامر قوائمه الجلمود والفلك الظهرُ
فلو طار مهر قبله ذو حوافر لطار ولكن لم يطر قبله مهرُ
كريم يد عند العطاء يخالها سحاب سماء منه قد نزل القطرُ
لها الله كم احيت ببذل نوالها فقيراً وكم قد مات من جودها فقرُ
تجود على العافين بالمال وهي في حياء وذاك الجود يسبقه العذرُ
فما (الفضل) في يوم النوال له جداً وما (القس) في يوم المقال له قدرُ
وقد عم كل الصيد جوف من الفرا عن البحر حدث انك البحر والبرُ
فتِهْ معجباً واحكم بما شئت آمراً ترَ الدهر عبداً طائعاً ولك الامرُ

وقال مخمساً :

ظبي تحاكي البان لينة قدهِ قد جرع العشاق فتنة قدهِ
ولكي يشاغلني بجمرة وردهِ «كتب العذار على صفيحة خدهِ»
« نوناً واعجمها بنقطة خالهِ »

لما انثنى عجباً اسقي وروده فاوضته بوفا قتيل عهوده
شبهت حالك ظلمة بجموده «فسواد طرته كليل صدوده»
«وبياض غرته كيوم وصاله»

ولما زار مدينة اللاذقية نظم قصة صدرها بنثر بليغ والحقها بابيات مخمسة طويلة قال في مطلعها :

قلبي كراه عاذلي بملامه وكلامه من قبح جهل كلامه
اسلو ولكن يوم عرس حمامه رشأ يميز الغصن لين قوامه
ويميز شمس الافق نور جبينه

ايلومني وانا الذي في هجره قد ذقت من حلو الغرام ومره
وغدا الفؤاد باسره في اسره فنحيف جسمي من نحافة خصره
وسقام قلبي من سقام جفونه

افديه من رشإ أغنّ مهفهف حلو الشمائل والمعاني اهيف
اخذ الملاحة كلها من يوسف جل المكون كم ادق الصنع في
ابداعه واجاد في تكوينه

كم من قلوب في هواه صادها ولكم اسود كالظباء اعادها
ذو مقلة ما قط اتقن صادها قلم وخال تحت حاجبه دها
عقلي وكان هناك نقطة نونه

وقال يرثي الطيب الذكر البطريرك مكسيموس المظلوم الكاثوليكي المشهور المتوفى في الاسكندرية سنة ١٨٥٥ م . من قصيدة :

غاب تحت التراب بدر الاعالي وعراه الممات عند الكمال
وهوى الكوكب المنير بارض حسدت قلبها قلوب الرجال

كوكب الشرق من بنور هداه قد محا في الورى ظلام الضلالِ
معدن البر محمّد الطهر مكسيموس رب الحجى حميد الخصالِ
من سرى في طريق مولاه حتى سبق السابقين بالافضالِ
ونحا صارفاً الى الله فعلاً بالتقى لا بالقلب والاعلالِ
كم محل سام اشاد وكم من منزل قد بنى من المجد عالي
ولكم بالاقوال نال اموراً لم ينلها سواه بالافعالِ
اشرقت شمس فضله في البرايا وتجلت بنورها المتلالي
فاحالت ليل الضلالة صبحاً وازالت جهلاً عن الجهالِ
فجعتنا به صروف زمان جائراً لا يزال في كل حالِ
ورمتنا منه النبال الى ان لم يعد موضع لوقع النبالِ
ودهانا منه بخطب مهول هوله كان اكبر الاهوالِ
ان ضرب السيوف ايسر فعلاً كان منه وطعن سمر العوالي
فغدونا والحزن ملء حشانا مثلاً سائراً من الامثالِ
آهِ واحسرتاه إنّا فقدنا سيداً لم نجد له من مثالِ
آهِ واحسرتاه إنّا خسرنا كنز علم يزان بالاعمالِ
آهِ لو يقبل الزمان فدآء عنه منا بالنفس او بالمـالِ
ان فديناه ليس بدع اذا كنا م جعلنا الحصى فداء اللآلي

ونظم عدة قصائد في مدح الشماس حنا ابرهيم مهنا السلموني (*) الموسيقي

(*) اصل بني السلموني من جزيرة اقريطش (كريت) جاؤوا لبنان في اواخر القرن السابع عشر وتديروا بلدة زوق مكايل في كسروان وبعضهم في بيروت . ونبغ منهم كثيرون في الادب ، ونشأ منهم كهنة وراهبات عرفوا وعرفن بالفضيلة والتقوى .

الكنسي ، الرخيم الصوت ، في دير القرقفة بكفرشيما ، وكان صديقه ، وهو من الرهبنة الباسيلية الحناوية . قال في احداها :

لقد سمعت قديماً عنك ما نظرته م الآن عيني فصرت الآن مختبرا
وكنت استمع الاخبار عنك فقد كفاني الخبر عن ان اسمع الخبرا
لقد رضعت حليب البر من صغر والبر في الطفل ينمو كلما كبرا
فضيلة ثم طهر ليس يبرح في شبيبة وعفاف يدهش الفكرا
لا بدع منك فان الاصل عادته لا بد ان يقتفي من اصله الاثرا
لا زلت يا «ابن مهنا» في هنا وصفا عيش هني رغيد تبلغ الوطرا

وقال فيه ايضاً :

رقت شمائله الحسان فرق نظم م الشعر لي مدحاً به وتغزلا
وزهت معانيه الرقاق فاخجلت لطفاً نسيم الصبح لما اقبلا

وقال فيه قصيدة عند عيادته بانحراف صحته :

عافاك مولاك الكريم تلطفا وشفاك من هذا السقام وكم شفى
لنراك ترفل في ملابس صحة متوشحاً ثوب المسرة والصفا

ومنهم حبيب انطون مهنا السلموني المشهور في لندن بمؤلفاته وصحافته، ومنهم هذا الاب واسمه ملحم بن ابرهيم مهنا . تنصر في مار جرجس الزوق في ٢٥ ك ٢ سنة ١٨٢٥ وترهب . واشتهر برخامة صوته وبادبه . وله تلامذة كثيرون في الموسيقى الكنسية . ومنهم الشاعر الموسيقي جرجي افندي الصباغ الزوقي . وتوفي هذا الشماس سنة ١٨٨٣ كاهناً في بيروت .

وفي « النشرة الرعائية » لابرشية بيروت الكاثوليكية تاريخ آل السلموني بقلم المعلوف مؤلف هذا التاريخ .

هل ما عرفت حديث ايوب الذي قدصار بين الناس اشهرمن قِفَا(*)

كيف ارتضى واطاع امر الله في م البلوى التي عن حالها برح الخفا

فالشمس يعروها الكسوف حقيقة والبدر من عاداته ان يخسفا

ومنها :

واليكها مني عظات فوائد علمتنيها فما وعظت تفلسفا

وبحمد ربي انت افضل واعظ علماً واكثر خبرة وتصرفا

وقوله يمدحه بقصيدة من نوع التخيير البديعي . قال في ختامها يهنئه بالعيد :

فاسلم ودم وانعم وعش وافرح وتِهْ متحكما واغنم لذيذ هناه

وتهنَّ بالعيد السعيد وكن به متنعما واربح زمان صفاه

واليكها « راجيةً » ترجو الرضى والانتما م ؛ اليك خير جزاه

جاءت اليك ووجهها خجلا غدا متلثما تهديك طيب ثناه

طرزتها وزففتها فحكت طرازاً معلما وزهت على اللألآه

واقبل هدية شاعر عيِّ القريحة ابكما ذي تحفة الشعراه

ثم ابقَ ما غنى الهزا ر على الغصون منغما في روضة غناه

وقوله مخمساً الابيات المشهورة :

لقد طلقت نوم العين بتًّا وزارتني صروف الحب وقتا

فصيِّف هجرها فينا وشتَّى وليلى ما كفاها الهجر حتى

محت رسمي بالحاظ العيونِ

ذنوبي عند ليلى ما تماحتْ فاتعبت الفؤاد وما استراحتْ

وسفك دمي بعينيها اباحتْ وافتت حل هجري ثم راحتْ

(*) اي « قِفا نبكِ » وهي مطلع قصيدة لامرىء القيس يضرب المثل بشهرتها .

الى قاضي المحبة تشتكيني

فقال بحكمه واليه مالتْ بقدٍ قدْ قلبي ثم صالتْ
على عيني فسحّت ثم سالتْ فقلت لها ارحمي ضعفي فقالتْ

ومن يبغي الترحم يتقيني

أيا ليلى ارحميني فالثجني فهجرك قد اذاب القلب مني
فقالت يا خليُّ اليك عني فمت شوقاً وما هذا التمني

فهل في الحب يا امي ارحميني

وقوله من موشح طويل على نمط الموشحات الاندلسية :

يا رسولي سر الى ذاك الحمى وطن الاحباب ربع الانسِ
واهدهم شوق محب قد حمى طرفه عن نظر لم يحبسِ

دور

هم احبابي وسؤلي والمرادْ هم أصيحابي وقصدي والمنى
هم اخلائي وهم اهل الودادْ ان قلبي لسواهم ما انثنى
همُ في الاحشاء مني والفؤادْ جعلوه في هواهم مسكنا
فهو بيت عامر قد عظما مذ غدا مأوى ظباء الكُنُسِ
ان يغيبوا عنه حيناً فكما مرت الاسهم عن عوج القسي

دور

لست انساهم ولو طال المدى فعلى هجرهمِ صبرٌ طويلْ
لا ولا اسلو هواهم ابدا فالى قربهمِ كيف السبيلْ
لهمُ روحي مع القلب فدى ولوَ انَّ الوصل منهم مستحيلْ
لا تخلْ سكريَ من وجد نما في فؤادي لاهباً كالقبسِ

انما سكريَ من خمر اللمى حينما قد كنت منه احتسي

الى غير ذلك من اشعاره الرقيقة التي ضاع اكثرها بوفاته. رحمه الله .

***

ولده الشيخ ملحم

هو ابن الشيخ راجي الآنف ذكره ووالدته سوسان ايوب الدهان . ولد في كفرشيما سنة ١٨٥١ م . وتيتم ابن خمس سنوات من والده فاحتضنه مع اخويه صالح واسكندر عمهم الشيخ ناصيف وارسلهم الى مدرسه شنيدر الالمانية في القدس فتعلموا فيها العربية والانكليزية والالمانية. وذلك نحو سنة ١٨٦١م. فجاء بيروت ملحم وصالح وبقي اسكندر في المدرسة فمرض وتوفي فيها شاباً ذكياً اديباً . فلم يعد اخواه الى المدرسة . ثم توفي صالح ايضاً وكان مجتهداً في علومه وهو شاب. وبقي اخوهما الشيخ ملحم هذا فترعرع في بيت العلم على عمه ، وفي المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فصرف فيها اربع سنوات درس فيها العربية وبعض الايطالية . ثم دخل المدرسة البطريركية في بيروت بزمن رئاسة الخوري جرجس عيسى السكاف الزحلي ، وكان عمه استاذاً فيها. فاتقن العربية بآدابها في مدة اربع سنوات ، ومال الى نظم الشعر الرقيق فنبغ فيه مثل رجال اسرته .

وتعاطى التجارة مدة خمس سنوات مع ابن عمه الشيخ عبدالله ونحو سنة ١٨٧٥ اقترن بعفيفة ارملة ابن عمه الشيخ نصار كما مر في ترجمته . وبعد سنتين سافر الى القطر المصري واشتغل اولاً بالتجارة في القاهرة ثم دخل في المكس (الجمرك) المصري كاتباً في المحررات العربية . وبقي نحو عشرين سنة. واحيل على التقاعد بداعي مرضه . فعاد الى لبنان استشفاء بهوائه ، وتدير زحلة هو

وزوجته سنة ١٨٩٧ وانقطع الى المطالعة والكتابة فجمع بعض آثار اسرته ولاسيما عمه ووالده ، ودوّن اشعاره بمجموعة . وكنت قد جئت زحلة سنة ١٨٩٨ وسكنت بقرب مسكنه ، فكنا نجتمع معاً ونتباحث بشأن الاسرة اليازجية وآثارها . وفي الحرب الماضية سنة ١٩١٤ قاسى ضغطاً فكرياً لانقطاع راتب التقاعد عنه ، فلما صار الاحتلال سنة ١٩١٨ قصد القطر المصري في اوائل سنة ١٩١٩ واجتمع هناك بابنة عمه السيدة وردة في الاسكندرية وببعض انسبائه الباقين هناك ، وعاد الى زحلة في شهر ايار سنة ١٩٢٠ وبقي فيها الى ان ألمّ به مرض انهكه فهبط بيروت وتديرها مع زوجته سنة ١٩٢٣ وتوفي فيها بلا عقب في اذار سنة ١٩٢٥ م . وبقيت زوجته حية الى ١٨ اذار سنة ١٩٣٣ فتوفيت عن ٨٣ سنة وكانت ذكية فاضلة . رحمها الله .

شعره :

كان الشيخ ملحم اديباً ، جيد المحاضرة ، حسن الخط والانشاء والنظم ، طيب القلب بسيط المعيشة . وله ولع بآثار اسرته . وقد رأيت عنده بعض كتبهم مثل ديوان المتنبي بخط عمه الجميل ، وعلى بعض القصائد شروح وتعاليق اعتمد عليها ولده الشيخ ابرهيم في كتاب « العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب » الذي اكمله وهذبه وطبعه باسم والده . ومما عنده شرح بديعية عمه الشيخ ناصيف التي سماها « القطوف الدانية » وقد مرّ وصفها . وهي بخط الشارح في ٣٠ صفحة . ومجموعة من قصائد عمه واولاده وغيرها . ومنها ديوان والده الشيخ راجي ، نسخ بعض قصائده مما جمعته له كما مر . ومنها مجموعة انتخبها من المجلات والجرائد ببحوث مختلفة ، وكلها بخطه . وهي من مخطوطات خزانتي .

اما ديوانه الشعري فقد فُقِد ، وعندي نخبة منه ، وفي صدره بيتان لابن

عمه الشيخ ابرهيم في تقريظه وهما :

ديوان ملحم فيه فاكهة لنا هي للجراحة كل يوم ملحمه
بدر صحائفه الحسان كسندس بيض ولكن بالمحاسن معلمه

وفيه قصائد رقيقة في كثير من البحوث بين مديح ورثاء وتقريظ وتواريخ شعرية ومراسلات . فمن اشعاره قوله يرثي المرحوم يوسف الجلخ الطبيب المتوفى سنة ١٨٦٩ من قصيدة :

كؤوس البين دارت في الانام من الشيخ الكبير الى الغلام
فلم يكُ آمناً منها كبير ولا من كان في سن الفطام
وامر الموت ما لا بد منه ولو كانت حياتك الف عام
عياء للطبيب به عياء فقد صار الطبيب الى الرجام
وطال لفقده نوح البواكي باجفان لفرقته دوامي
من الله السلام على ضريح تحجب طيه بدر التمام

وقوله من قصيدة في رثاء شاهين سركيس المتوفى سنة ١٨٧٠ :

كاس المنايا علينا دائر ابداً لكن يرى الكل ساقيه وليس يرى
سقى الكريم الذي في اللحد مضجعه وذكره لم يزل في الارض منتشرا

وقوله في رثاء نقولا بك المدور المتوفى سنة ١٨٧١ من قصيدة :

يقضي الفتى عمره باللهو مشتغلاً عن هول يوم بطي الترب يصرعهُ
لا يأخذ المرء شيئاً من خزائنه الا الصلاح الذي في القلب يزرعهُ
اليوم قد مات من آل المدور من ابكى العشائر دمعاً طاب منجعهُ
كريم اصل كريم الراحتين له اجر من الله باق لا يضيعهُ
ان كان عن كل عين بات محتجباً فقد غدا في قلوب الناس موضعهُ

وقوله مقرظاً رواية يوسف الصديق :

لله حسن رواية قد شخصت احزان يعقوبٍ وصورة يوسفِ

قد جاد منشئها اللبيب بها لنا يا حسن تأليف وحسن مؤلفِ

في طيها درر المعاني لُحنَ في كلم ارق من النسيم الالطفِ

نادى لسان الحال قوموا فانظروا قد عاد يوسف قبل يوم الموقفِ

وقوله يؤرخ ضريح جرجس بن يعقوب فياض المتوفى سنة ١٨٧٢ :

هذا ضريح ابن فياض بتربته اضحى ضريحاً فامسى منزل القمرِ

تسقي ثراه الغوادي الهاطلات كما تسقيه رحمة رب العرش في السحرِ

قد سار فوراً بيوم نحو خالقه وخلف النوح في الآصال والبكرِ

لا بدع ان تم فيه ارخوه له فوزٌ فجرجس يدعى لابس الظفرِ

وقوله على رسم له اهداه الى احد اصحابه سنة ١٨٧١ :

قد صار جسميَ رسماً من فرط وجدي سقيما

فخذه واذكر صديقاً على العهود مقيما

الى غير ذلك من رقيق منظوماته .

وفي هذا ينتهي مختصر الجزء الاول من تاريخ اليازجيين

ويليه الجزء الثاني في اصهارهم واولادهم مختصراً



ملحق

مقتطفات من تقاريظ الطبعة الاولى

من

تاريخ المشايخ اليازجيين

وقفنا على بعض الرسائل والصحف التي قرظت ذلك التاريخ فنقتطف منها ما يحتمله المقام :

الرسائل

كتب سيادة الحبر المفضال يوسف المعلوف مطران بعلبك الى جامع هذا التاريخ رسالة هذا نصها :

لقد طالعنا بسرور (الغرر التاريخية في الاسرة اليازجية) وباطلاعنا على مآثر تلك الكواكب التي لمعت في شرقنا الاغر رأينا خلال اسطرها صورة كاتبها التي ذكرتنا بما لكم من الايادي البيضاء في عالم الكتابة . واذا ما اطرأنا مؤلفكم هذا بالمديح الذي يستحقه ان نزيدكم فخراً وشهرة وقد حلقتم في سماء الكتابة والمطالعة والتأليف . فنقتصر على كلمة شكر نؤديها لكم ايها النسيب العزيز ونطلب الى الله ان يبقيكم للعائلة فخراً وللشرق نوراً وللكتابة نبراساً .

***

وكتب حضرة الاستاذ الكبير فتح الله بك صقال الحلبي ما نصه :

وصلني مؤلفكم الجديد (الغرر التاريخية في الاسرة اليازجية) فعكفت على قراءته وعلى تذوق ما فيه من بدائع النثر وروائع الشعر اللذين خلفتهما تلك الاسرة المجيدة الخالدة، التي صادقتم اشهر مشاهيرها الشيخ ناصيف والشيخ ابرهيم، والتي ابيتم إلَّا ان تشملوهما بجميل الذكر، وإلَّا ان تظهروا للناس محاسن فضلها على العلم والادب في بلاد العرب .

واني لانتظر – كما ينتظر المعجبون بالاسرة اليازجية – الجزء الثاني من المؤلف المذكور وهو الجزء المخصص للبحث في تاريخ اصهار اليازجيين وبناتهم واسباطهم .

ولا ريب انكم ستبدعون فيه ابداعكم في الجزء الاول الذي اقل ما يقال فيه انه تحفة ادبية تاريخية نفيسة تنطق بفضل اولئك المشايخ اليازجيين الخالدين خلود الزمن .

وان (للكلمة) كلمة في هذا الصدد نرجو ان تقرأوها في العدد القادم الذي سنبدأ بتحريره قريباً جداً ان شاء الله . وتفضلوا بقبول اطيب السلام وازكاه .

***

وقال حضرة النسيب الكريم قيصر بك المعلوف :

اليازجيون الكرام بعلمهم	ملكوا البيان وشرّفوا التأليفا
فلهم على لغة الاعارب نعمة	لم ينسَها من يذكر المعروفا
هذي مآثرهم سمت بنبوغهم	فاذا عددت فقد عددت الوفا
واذا وصفتهم فرادى لم تجد	الا مثقفة النهى وثقيفا
من (وردة) حبت الرياض بعرفها	نفحتك من طُرَف البديع طريفا

او من (حبيب) او (خليل) حلقا ... نثراً ونظماً شائقـاً وشريفا
بيراع (ابرهيم) تبرٌ سائلٌ ... اغنى (البيان) واشبع التصريفا
فاذا جرى في الطرس وقع صريره ... خطَّ (الضيآء) مباحثاً و (حروفا)
اما فروع (اليازجيِّ) فكلهم ... حَذِقَ الفنونَ وزادها تعريفا
وكفى بهم فخراً اذا انتسبوا زها ... مجدُ العروبة إنْ ذكرتَ (نصيفا)
بحر العلوم وجهبذ الشعراء كم ... ادنى الثمار الطيبـات قطوفا
لا بدع يا عيسى اذا عززتهم ... فـالحر بالاحرار بات شغوفا
فاهنـأ بسفر خالد غذيته ... فغدا بطيّب ذكرهم (معلوفا)

المجلات

قالت مجلة (الكلمة) الحلبية ما نصه :

لنبدأ بكتاب صديقنا العلامة عيسى اسكندر المعلوف ، عضو المجامع العلمية في مصر ودمشق وبيروت والبرازيل الذي هو اقرب الادباء اليَّ وآثرهم عندي . فقد رزقه الله من الفكر السليم والعلم الواسع والدأب على اعمال التحبير والتحرير وتأديتها في اوقاتها وترتيبها ما اتاح الله للتأليف القيم النافع ، بعد ان بلغ حدّاً فائقاً من المهارة في تقديم البحوث التاريخية الى عامة القراء ، مما جعل مؤلفاته في متناول كل قارىء ، يفهمها في غير عسر او مشقة . بل يقبل عليها في شغف ولذة . ومن هذه المؤلفات كتابه (الغرر التاريخية في الاسرة اليازجية) وهو احد جزأين بهذا الاسم . ويقع في مـائة وست وعشرين صفحة متوسطة القطع . ترجم فيه للعلماء اليازجيين كالشيخ عبدالله اليازجي ، والشيخ ناصيف

وزوجته واولاده واخوته ، والشيخ حبيب ، والشيخ خليل ، والشيخ ابرهيم اليازجي . وطريقة الاستاذ في تراجم هذه الاسرة ان يأتي بلمحة من تاريخ كل شيخ منها، ويبين البيئة التي نشأ فيها ، ويذكر المناسبات التي حركته الى النظم ، ثم يتطرق الى مؤلفاته ، والى شعره وتواريخه الشعرية، والى اخلاقه وصفاته، ثم يورد بعض الشواهد من مأثور نظمه ومن مشهور قصائده وازجاله . وهو يتدفق من غير التواء ولا تعقيد، ويتبسط في غير حشو ولا اسفاف .

ولعل القارىء يشاركني في شعور الغبطة حين يتجلى له هذا الاخلاص من استاذنا المعلوف لطائفة من اهل مهنته كاد ينسى معظمهم على الرغم مما قدموه في ميدان المعارف من خدمة اللغة العربية وآدابها . فالكتاب كما ترى جدير ان يثير اهتمام الادباء بهؤلاء العلماء . وهو وفاء يثاب عليه المؤلف ، واجتهاد يستحق من اجله الثناء . صبحي العجيلي

***

وكتبت (الرسالة المخلصية) بعد مقدمة عن المؤلف وتاريخ اليازجيين :

... انا نرى من العبث ان نطرىء في الوصف فان الرأي العام قد قدر قيمة تلك الخلاصة ، واكبر في الوقت نفسه جهود الاستاذ الكريم الذي عرفته الصحافة كلها بآثاره التاريخية ، وابحاثه العلمية ، ونفثات قلمه ، ونتاج فكره. وما اكثر واجل ما له في الصحف من صفحات يكفيها فخراً انها من قلم احد اعضاء المجامع العلمية الكبير .

ولقد اراد حضرته ان تطبع تلك الزبدة في (المشايخ اليازجيين) على حدة فكان له ما اراد ، وكان لمكتبة الادب العالمي كتيب جميل تتجاوز صفحاته مائة وخمساً وعشرين من الحجم الصغير . يكفي المطالع تعريفاً بتلك

الاسرة العلمية بافرادها ، وتنويهاً بفضلها على اللغة العربية وآدابها بالخصوص .
فضلاً عما لها من الادب العالي الذي هو ميزة النفوس الكبيرة النبيلة .

وسيتبع هذا الجزء الاول الجزء الثاني في الاصهار قريباً ان شاء الله .
وها نحن قد بدأنا بنشر هذا الجزء على صفحات هذه المجلة (اي الرسالة المخلصية) .

***

وكتبت مجلة (النشرة الرعائية لابرشية بيروت الملكية الكاثوليكية) (المجلد السابع والصفحة ٢٦٥) ما نصه، بقلم المفضال الارشمندريت اوغستينوس سرده مدير النشرة المذكورة ، بعاطفة ابوية :

(الغرر التاريخية في الاسرة اليازجية)

ينشر المؤلف (عيسى اسكندر المعلوف) هذا التاريخ الثمين في مجلة (الرسالة المخلصية) . وقد طبع منه الجزء الاول مختصراً ، ويتبعه الجزء الثاني في (اصهار اليازجيين وبناتهم واسباطهم) وقد خص بحثه في الفرع اللبناني منه وجدهم اسعد اليازجي اتى من حوران الى حمص في اواخر القرن السابع عشر . ثم تدير الشويفات فكفرشيما حيث رزق ثلاثة بنين: جنبلاط ونجم وباز وكان اشهرهم جنبلاط ، وهو جد عبدالله اليازجي والد الشيخ ناصيف .

وقد اشتهر ناصيف بتفوقه في اللغة العربية بين كل الناطقين بالضاد من مسيحيين ومسلمين، وقد نطق وكتب نثراً وشعراً كاشهر ادباء العرب في الجاهلية وما بعدها . وهو واسرته فخر للطائفة الملكية الكاثوليكية، وركن من اركان النهضة العربية في القرنين الماضي والحاضر . وقد رزق ستة بنين وست بنات الفوا مع اصهرته بيوتاً للعلم والادب العربي .

واستاذنا المعلوف لم يترك شاردة او واردة من مؤلفات واقوال اليازجيين المطبوعة او المخطوطة الا دونها في مؤلفه الثمين (الغرر التاريخية) كأنه خلق معهم وعاش بينهم . ولا غرو في ذلك فهو ذاك المحقق المدقق النادر المثال في التاريخ . وله الفضل العظيم في حفظ تاريخ الاسر اللبنانية لحفدة الحفدة . ويا ليت حكومتنا الجليلة تهتم بطبع ونشر مؤلفاته الخطيرة شأن الدول الراقية فيسطر لها التاريخ هذه المأثرة بماء الذهب .

ونحن نشكر له معاضدته ايانا في نشر (تاريخ الاسر العلمية) في كل عدد من اعداد نشرتنا الرعائية تبرعاً منه وحباً بخدمة الادب والدين والوطن .

* * *

وكتبت (مجلة الاديب) البيروتية الغراء (٣ : ٤٩ ما نصه) :

الكتاب يقع في جزأين كما ذكر مؤلفه ، والذي بين ايدينا هو الجزء الاول – ولقد اطاف به مؤلفه على المشايخ اليازجيين وحفل باخبار حياتهم وآثار افكارهم . ولا بدع فالمؤلف – كما عرفناه – مؤرخ علامة تتساءل – وانت على حق – عما فاته وندَّ عنه . والكتاب بعد ذلك احياء لنزعة باتت دارسة رغم ضرورتها وفائدتها – ورغم انها كانت فرعاً مهماً من فروع التاريخ عند مؤرخي القدماء .

* * *

وذكرت (مجلة الاحد) الدمشقية مـا ياتي باختصـار (في ١ ايلول سنة ١٩٤٤) :

كتب العلامة المؤرخ عيسى اسكندر المعلوف عضو المجامع العلمية (الكتاب اليازجي) بقسمين الاول في تاريخ المشايخ اليازجيين والثاني في تاريخ

اصهارهم وبناتهم واسباطهم . فالقسم الثاني خاص بالتقصي التاريخي العائلي .

والقسم الاول يحمل لباب الموضوع في دراسة احوال هذه العائلة الادبية الكبيرة عائلة اليازجي ، التي كانت لها اليد الطولى في نهضة الادب العربي الجديد ، قبيل انصرام العهد التركي ، وفي مطلع العهد الحديث. ويبدأ حديث الكتاب بالشيخ عبدالله والشيخ ناصيف. ثم الى الاولاد والحفدة بسرد تاريخي جميل عرف به الاستاذ المعلوف وشاه ورصعه باستشهادات ادبية قبسها من كنوز اسرة اليازجي الادبية ...

وعلى كل حال فالمعلوف ثروة من ثرواتنا الفكرية في كل ما يكتب وينشر .

***

وقالت مجلة (الضاد) الحلبية ما نصه :

تاريخ المشايخ اليازجيين : هو سفر ثمين رائع يقع في جزأين (الاول) في تاريخ المشايخ اليازجيين — (والثاني) في تاريخ اصهارهم وبناتهم واسباطهم.

وقد الف هذا السفر شيخ مؤرخي العرب العلامة المحقق المدقق الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف عضو المجامع العلمية في سوريا ولبنان ومصر والبرازيل.

وطبع الجزء الاول منه في ١٢٨ صفحة استوعبت مباحث طلية جلية تظهر للقارىء احسن ما يصبو الى معرفته من امر الاسرة اليازجية التي تفاخر بها العروبة وتباهي .

الجرائد

قالت جريدة (الشرقية) ، لسان حال الكلية الشرقية في زحلة ، كلمتها بتوقيع (ن . ن) في المجلد الخامس والعدد ١١ بتاريخ ١ آب سنة ١٩٤٤

نقتطف منها هذا :

لا يخفى ما كان للاسرة اليازجية اللبنانية من الخدم الجليلة في جانب اللغة والآداب العربية منذ مطلع النهضة الجديدة ... على ان ترجمة افراد هذه الاسرة الكريمة كانت مجهولة التفاصيل لدى الكثيرين . ولم يكن بين ادباء اليوم من يستطيع سد هذا الفراغ غير شيخ المؤرخين الاستاذ المعلوف وهو اشهر من اتصل باليازجيين عن قرب واطلع على آثارهم المخطوطة ، واحسن قدر منزلتهم وفضلهم على الادب والادباء . . . ففاجأنا بمجلد لطيف هو القسم الاول من تاريخهم .

وطريقة الاستاذ معلوف في التاريخ معروفة فهو يدرس الحقائق ويدونها باسلوب موضوعي بحت، مسجلًا ما يحفظه من المعلومات بدقة واختصار، تاركاً للقارىء ان يربط بين الحوادث ويستنتج النتائج ويتخذ لنفسه العبر ...

وبقي موعدنا الى الجزء الثاني لنتعرف ببنات الشيخ وحفدته وسائر من اقتبس منه من اقاربه وذويه .

فاذا شكرنا للاستاذ المعلوف هذه الهدية فقد شكرنا له خدمة للادب لا تنسى . واملنا الا يطيل علينا الانتظار حتى يرينا سائر اجزاء الكتاب بل سائر ما لديه من المؤلفات ماثلًا بالطبع تتمتع به الاعين والآذان .

* * *

وكتبت جريدة (زحلة الفتاة) مقالة جاء فيها ما نقتطف منه هذا الكلام :

رأينا في خزانة الاستاذ معلوف مجاميع ذات شان من تواريخ اليازجيين واصهارهم وبناتهم واولادهم . وكثير منها بخط هؤلاء العلماء الاعلام . وهي مجلدات كثيرة . وطالعنا في مجلة ((المقتطف)) ، ومجلة (الانوار) في دمشق ، و((النشرة

الرهبانية الكاثوليكية) في بيروت ، ومجلة (الآثار) للمعلوف ، (والمهذب) وغيرها ، تراجم افراد هذه الاسرة العلمية ونوابغها الذين خدموا اللغة العربية وآدابها بمؤلفاتهم ، وكلها للمعلوف . وسمعنا محـاضراته في الكلية الشرقية في زحلة وغيرها ، عن هؤلاء المشاهير الذين عرفوا باخلاصهم وآدابهم واخلاقهم . وعرفنا بمجالسته للشيخ ابرهيم وشقيقته وردة .

ثم طالعنا في مجلة (الرسالة المخلصية) تاريخ هذه الاسرة المختصر من تاريخها المطول ، وقد جمع على حدة بكتاب في ١٢٨ صفحة ، بطبع متقن وترتيب عصري في تاريخ الاسرة ومواطنها وانسبائها وتراجم مشاهيرها الى يومنا ، وما عرفوا به من الاخلاق العالية وخدمة العلم بمؤلفاتهم النفيسة والصحافة باوضاعهم الفاظاً للمعربات وبحثهم في فنون اللغة ومزاياها حتى اغنوا المكاتب بما دبجته اقلامهم السيالة . . .

وقد بدأت (الرسالة المخلصية) بنشر الجزء الثاني في اصهار اليازجيين وسيطبع على حدة مثل الاول مختصراً . فمتى نجز طبعه نعود الى وصفه داعين للمؤلف شاكرين غيرته .

***

وصفت الكتاب جريدة (الوادي) الزحلية . فمن قولها فيه :

ولع الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف بتاريخ الاسر ولاسيما العلمية منها التي كانت من اركان النهضة العصرية . اخصها آل اليازجي واعقابهم ممن نسجوا على منوالهم في خدمة اللغة العربية وآدابها ، بنشر تراجمهم وذكر مؤلفاتهم واخلاقهم ومآثرهم .

فطبع اليوم مختصر تاريخهم من الكتاب المطول فيهم بعد ان نُشر في

مجلة (الرسالة المخلصية) وهو الجزء الاول، فتصفحناه فاذا في طيه غرر وروائع يجهلها كثيرون منا وممن تقدمونا . لان كثيراً منها كان مطوياً في بعض المخطوطات التي جمع مئات منها المعلوف في خزانته الملأى ببدائع المؤلفات من مخطوطة ومطبوعة .

والجزء الثاني من هذا التاريخ هو لاصهار اليازجيين تنشره مجلة (الرسالة المخلصية) ويطبع على حدة وفيه فوائد جديرة بالمطالعة باختصار فيكون المعلوف الذي اشتغل بتواريخ الاسر وانسابها ومشاهيرها في اربعة عشر مجلداً قد خدم هذه الاسرة ... فنحض الادباء على مطالعة تاريخها والاستفادة منه .

* * *

وكتبت جريدة (البصير) في الاسكندرية مقالة بتوقيع الاستاذ جبران افندي النحاس ذيلها ببحوث رائعة ونظريات شائقة عن اليازجيين. فما قاله عن (تاريخهم) ما يأتي ملخصاً :

اخلاص ووفاء ومثابرة على البحث وسعة اطلاع يزينها التواضع . لتلك صفات العلامة المتبحر الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف . ومن يجهل فضله وهو كل يوم يطرف الادب بانصع برهان على ما اوتيه من براعة وما رزقه من التبسط في العلم .

ومما ابرزه مؤخراً سفر مختصر من تاريخه للاسرة اليازجية . وكان قد جمع وطالع كل ما نفثته اقلام اليازجيين وكل ما امكنه الوقوف عليه من مخزونات المكاتب والاديار، او مكنونات صدور اشياعهم . واليازجيون حقيقون بان يذكروا بالجميل وان يحرص الادباء على التحدث عنهم فقد خدموا اللغة خير خدمة وتركوا فيها آثاراً يُتنافس بها. بل ان اسلوبهم في سبيلها اشبه بعناية

والد يحنو على تثقيف بنيه ويوفق بتلقينهم فنون الادب بارتياده لهم اكرم نجعة واعذب مورد.

فوضع اليازجي الاكبر لهذا القصد مختصراته والمطولات ترى المهتدي بشكاتها اشبه بصاعد سلم يرقى ثابت القدم لينتهي بين ارباب العلم.

وكل مصنفاته من السهولة وحسن السبك بحيث يحذقها الطالب على غير مؤونة فتعلق في ذهنه فصاحة تراكيبها عفواً بدون تعمد ...(*)

***

وكتبت جريدة (الفنون الجميلة) ما يلي :

العلامة الاستاذ عيسى المعلوف من ادباء لبنان المفكرين، وهو مؤرخ وعالم كبير بكل ما تحمله هذه الكلمة من عمق واتجاه... اصدر عدة كتب ومؤلفات هي آية في تصوير الحقائق عن الاسر الشرقية وغيرها.

وقد اهدانا حضرته كتاب (الغرر التاريخية في الاسرة اليازجية) الجزء الاول في تاريخ المشايخ اليازجيين، ويليه قريباً الجزء الثاني في تاريخ اصهارهم وبناتهم واسباطهم... والكتاب مسبوك بقالب تاريخي جميل، درس فيه صديقنا الاستاذ عيسى حياة اليازجيين واقوالهم واشعارهم ونكاتهم المستملحة، في شتى ادوارهم العلمية. وفي هذا دلالة على خصبه الادبي، اما الجزء الاول من هذه المؤلفات القيمة فيقع في ١٢٨ صفحة متوسطة الحجم وهو سفر ادبي لا غنى عنه لكل اديب لانه جامع بين التاريخ والفكاهة والادب، فنحث ابناء العربية على اقتنائه، ونشكر لحضرة المؤرخ الكبير هديته الثمينة، كما اننا نثني على ادارة المطبعة المخلصية قرب صيدا غيرتها وحرصها على تواريخ العلماء امثال

(*) من كلام طويل عن اليازجيين في بضع اعداد من (البصير)

اليازجيين الذين خدموا الادب والعلم خدمات تسجل لهم باحرف من نور .

شكر واجب

فيشكر الفقير عيسى اسكندر المعلوف عواطف الذين تكرموا بمدحه من حسن ظنهم به وهو عارف عجزه وعالم انه كثير الخطإ والوهم ولكن (عين الرضى عن كل عيب كليلة) كافأهم الله خيراً عن الذين غادروا هذه الحياة وعمن بقي حياً . واطلقوا لاقلامهم الاعنة في مدحهم . انه السميع المجيب .



فهرس

في الاسر (العيال) التي ذكرت في هذا الجزء مرتبة على حروف الهجاء.

فهرس

الكتاب الاول في اليازجيين

Feb 1946 Princeton

